Internal Transformations in the Ottoman State (973-1029 AH / 1566-1620 AD) (An Analytical Study)

Sumer Fayoud [*]
Dr. Ali Ibrahim [**]

(Received 10 / 2 / 2026. Accepted 1 / 3 / 2026)

□ ABSTRACT □

The Ottoman Empire was the last Islamic state to rule the Muslim lands, and its rule lasted for about six hundred years after it was founded by Osman I bin Ertugrul. Its origins trace back to the Turks, and it reached the peak of its power in the sixteenth century. Its emirates extended to include the most important continents of the Old World. However, that power, glory, and sovereignty ended with the death of Suleiman the Magnificent. Although his reign included some weaknesses, whether within Ottoman society itself or in the governing apparatus, these weaknesses were not as clearly evident as they later became. If there is a Golden Age in Ottoman history, it is his era, whose significance grew in the minds of the Ottomans over time, to the extent that many of those who governed the state during various periods would yearn to restore its bygone glories. After him came an era of fragmentation and weakness, and the age in which Islamic conquests reached Central Europe ended. Internal competition and conflicts began, conditions deteriorated, and the Ottoman state became a target for enemies both internal and external. Yet, these transformations that affected various internal aspects did not occur out of nowhere; they were contributed to by a set of causes that this inquiry aims to shed light on.

Keywords: transformations, internal, Ottoman state, political, economic.

Copyright **:**Latakia University journal (formerly tishreen) -Syria, The authors retain the copyright under a CC BY-NC-SA 04

[*]**PhD Candidate - Department of History - Specialization: Modern and Contemporary - Faculty of Arts and Humanities - Latakia University(formerly tishreen) - Latakia – Syria swmrfywd@latakia-univ.edu.sy**
[**]**Associate Professor – Department of History – Specialization in Modern and Contemporary History– Faculty of Arts and Humanities – Latakia University(formerly tishreen) – Latakia – Syria.**

التحولات الداخلية في الدولة العثمانية (973-1029هـ/1566-1620م) (دراسة تحليلية)

سومر فيوض *

د. علي إبراهيم **

(تاريخ الإيداع 10 / 2 / 2026. قبل للنشر في 1 / 3 / 2026)

ملخّص

الدولة العثمانية هي آخر دولة إسلامية حكمت بلاد المسلمين، واستمر حكمها حوالي ستمائة سنة بعد أن أسسها عثمان الأول بن أرطغرل، وتعود أصولها إلى الأتراك، وقد بلغت ذروة قوتها في القرن السادس عشر، وامتدت إماراتها لتشمل أهم قارات العالم القديم، إلا أن تلك القوة والمجد قد انتهى مع وفاة السلطان سليمان القانوني، فعلى الرغم من أن عهده كان يتضمن بعض نواحي الضعف سواء في داخل المجتمع العثماني ذاته، أو في أداة الحكم فإنها لم تكن من الوضوح بالصورة التي أصبحت عليها فيما بعد فإن كان ثمة عصر ذهبي بالنسبة للتاريخ العثماني فهو عصره، الذي ازدادت أهميته في مخيلة العثمانيين بمرور الزمن، بحيث كان الكثيرون منهم خلال الفترات الحاكمة من تاريخ الدولة يتمنون استعادة أمجاده الخالية، ليأتي بعده عصر التفكك والضعف، وانتهى العصر الذي وصلت فيه الفتوحات الإسلامية إلى أواسط أوروبا وبدأت المنافسة والصراعات الداخلية، وتدهورت الأوضاع وغدت الدولة العثمانية هدفاً للأعداء في الداخل والخارج على حد سواء، ولكن تلك التحولات التي شملت مختلف النواحي الداخلية، لم تأتِ من العدم، بل ساهمت فيها جملة من الأسباب التي جاء البحث ليسلط الضوء عليها.

الكلمات المفتاحية: الدولة العثمانية، التحولات الداخلية، التحولات السياسية والاقتصادية.

حقوق النشر : مجلة جامعة اللاذقية (تشرين سابقاً)- سوريا، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص CC BY-NC-SA 04

* **طالب دكتوراه-قسم التاريخ -اختصاص تاريخ حديث ومعاصر - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة اللاذقية(تشرين سابقاً) - اللاذقية -سورية. swmrfywd@latakia-univ.edu.sy**

** **أستاذ مساعد -قسم التاريخ -اختصاص تاريخ حديث ومعاصر - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة اللاذقية(تشرين سابقاً) - اللاذقية -سورية.**

مقدمة:

لم يطل عصر القوة في الدولة العثمانية، إذ لم يزد كثيراً عن نصف قرن، ولم يشمل سوى عهدي سلطانين هما سليم الأول(918-926هـ/ 1512-1520م)، وابنه سليمان القانوني (926-973هـ/1520-1566م)، ثم جاءت بعدهما عهود الضعف مباشرة، حيث بدأ الخط البياني للسلطنة بالهبوط باستمرار، وإن توقف عن الهبوط وسار مستوياً في بعض المراحل لقوة بعض الخلفاء نسبياً أو لهمة حاشيتهم من الصدور العظام، غير أن مقدمات ضعف الدولة قد اتضحت في عهد السلطان سليمان القانوني إذ وقع تحت تأثير زوجته روكسلانة والتي حاكت الدسائس وتدخلت في شؤون السلطة، وقد ترافق ذلك مع ابتعاد السلطان سليمان عن جلسات الديوان، وبدا العجز واضحاً في معالجة المشكلات الاقتصادية، والاجتماعية والتي أفرزت سلسلة من القلاقل الشعبية في الروملي والأناضول.

أماعن عوامل الضعف فتنوعت فكان في مقدمتها الترف فالسلاطين خلال هذه الفترة كانوا رهينة ملذاتهم الشخصية تاركين أمور الحكم في أيدي وزرائهم، مما انعكس سلباً على الناحية الداخلية، فقد انتشرت الرشوة والفساد والاختلاس، وبيع الوظائف في دوائر الدولة، أضف إلى ذلك المحاولات الانفصالية لبعض الولاة عن مركز الدولة، وحلول العقلية العسكرية محل الإيمان والتخطيط والعقل لدى بعض السلاطين العثمانيين، فانتشرت الشغب، والقتل حتى بين أفراد الأسرة الحاكمة، وزاد الأمر سوءاً فساد جيش الدولة والسيطرة داخلياً لاسيما أن العسكري يحب التسلط، ويفكر بسيفه لا بعقله وأصبحوا يتطلعون لاستخدام قوتهم ضد كل ما لا يتوافق مع رغباتهم وهذا ماجرّ على الدولة البلاء، فالعسكريون يجب أن يبقوا ضمن ثكناتهم بعيدين عن الأمور السياسية إلا ما تقتضيه الضرورة، وفي النهاية لقد كان ضعف الشعور الديني وتراجعه من أهم الأسباب أيضاً التي ساهمت في انحلال وضعف الدولة العثمانية، فقد انتشر الفسق والفجور والنهب والسلب، فتم تجاوز حدود الدين، والشريعة الإسلامية، واستمرت الحال على هذا المنوال حتى بداية القرن السابع عشر الميلادي والذي زادت خلاله هذه الانتكاسات وبلغت ذروتها.

أهمية البحث وأهدافه:

أهمية البحث:

يستمد البحث أهميته من خلال العمل على تناول جانب من تاريخ الدولة العثمانية يتميز بنوع من الغموض والتساؤلات عن تلك الأسباب، والتحولات الداخلية التي انتقلت معها الدولة العثمانية من حالة المجد والقوة إلى حالة من الضعف، هذا ولم تأت الدراسة مقتصرة، ومتخصصة بجانب معين دون آخر، بل كانت شاملة لمختلف التحولات على جميع الأصعدة السياسة والاقتصادية والثقافية والعسكرية التي انطبعت بها الدولة العثمانية، وقادتها إلى مرحلة جديدة من عمرها اتسمت بالتراجع، والانحطاط مما يجعل القارئ أمام صورة واضحة عن تلك المجريات.

أهداف البحث:

جاء البحث لتحقيق جملة من الأهداف المتعلقة بالتاريخ العثماني في فترة شابها الغموض ومن أبرزها:

1-بيان التغيرات السياسية التي رافقت وفاة السلطان العثماني سليمان القانوني ووضع السلاطين الذين تولوا الحكم من بعده.

2-تفسير الضعف الاقتصادي الحاصل وإرجاعه إلى أسبابه الأساسية مقارنة بما كان عليه قبل الفترة المدروسة.

3-إعطاء صورة واضحة للقارئ عن الانقلاب الثقافي والجمود العلمي الذي حل بالدولة العثمانية خلال فترة البحث

بعدما كانت تشتهر في هذه الناحية خلال فترتها الأولى وتحليل عوامل ذلك التراجع.

إشكالية البحث:

تعتبر حالة الانتقال من القوة إلى الضعف بالنسبة للعثمانيين مفارقة وإشكالية بحد ذاتها تستوجب العمل على بيان تلك الأسباب التي أدت لتلك الحالة، وما هي أهم تداعياتها؟

تتدرج تحت هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات الفرعية على النحو التالي:

1-ماهي المفارقات السياسية التي حلت بالدولة العثمانية، وهل كانت ذات طبيعة واحدة أم ساد بينها الاختلاف؟

2- كيف انتقلت القوة العسكرية العثمانية من حالة الانضباط إلى حالة الفساد والثورة؟ وهل اقتصرت التأثيرات على الجيش البري فقط؟

3-هل كان الإنكشارية السبب الوحيد في حالة الفوضى الداخلية التي عاشتها الدولة العثمانية خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر الميلاديين، أم أن هناك قوى أخرى ظهرت على المسرح السياسي؟

4-ما هي أبرز العوامل التي أدت إلى تدهور الواقع الاقتصادي العثماني، وهل اقتصرت على المستوى الداخلي فقط؟

منهجية البحث:

تم الاعتماد على المنهج التحليلي الوصفي للوقوف على أسباب التحولات التي شهدتها الدولة العثمانية على المستوى السياسي والإداري، وكيف تحولت القوات العسكرية العثمانية من أداة للقوة إلى أداة ضعف، ليتم الحديث فيما بعد عن الواقع العلمي، وتبيان العوامل التي أدت إلى جموده، وتدهوره ليختم البحث بالجانب الاقتصادي وما آل إليه من تغييرات خلال الفترة المدروسة.

أولاً: الجانب السياسي والإداري :

تميز المجتمع العثماني والدولة العثمانية[1] بشكل عام بوجود حالة من الاستقرار والانسجام وسيادة المبادئ، والمثل العليا، حيث أنه لم يكن هنالك أية اهتمامات للعثمانيين بالتوجه نحو الإصلاح، أو أي تغييرات في الأوضاع السائدة بل كانوا يبحثون عن الحفاظ عليها حتى القرن السادس عشر الميلادي، كما كانت الدولة تشهد نوعاً من الاستقرار الاقتصادي، والاجتماعي شمل جميع طبقات المجتمع[2].

[1] الدولة العثمانية : ينتسب العثمانيون إلى عشيرة قايي التركية، وهي من الأتراك الأوغور، هاجرت إلى آسيا الصغرى في أوائل القرن(7هـ/13م)، وسكنت مقاطعة تابعة للدولة السلجوقية ويرجع تأسيس تاريخ العثمانيين ودولتهم إلى زعيمهم أرطغرل(682هـ/1231م) الذي اكتسب لقب "غازي " نتيجة فتوحاته المستمرة ضد بيزنطة وبعد وفاته (680هـ/1281م)، عن عمر ناهز 90 عاماً تولى ابنه عثمان الزعامة وإليه تنسب الدولة العثمانية. الهاشمي، عبد المنع. الخلافة العثمانية، دار ابن حزم، بيروت،2004م، ص10-17؛ بن دهيش، عبد اللطيف. قيام الدولة العثمانية، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، 1995م، ص25؛ شمس الدين نجم، زين العابدين، تاريخ الدولة العثمانية، دار الميسرة، عمان، 2010م، ص15.

[2] مصطفى، نادية محمد. العصر العثماني من القوة والهيمنة إلى بداية المسألة الشرقية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1996م، ص21.

Bkz.metinkunt.turkiyetarihiosmanli develti 1600-1908.c.3. istanbul.2009.cem yanevi.s22.

شهدت الدولة العثمانية سلسلة من التطورات السياسية مع نهاية القرن السادس عشر، ومطلع القرن السابع عشر، فقد شهدت تلك الفترة مرحلة المخاض العثماني من القوة إلى الضعف، والانحطاط ولعل أولى مظاهر ذلك الضعف، هو وصول سلاطين عثمانيين إلى سدة الحكم بعد السلطان سليمان القانوني (Sultan Suleiman the Magnificent) (926-973هـ/1520-1566م) [3] يفتقرون إلى الخبرة السياسية، حيث كان جل اعتمادهم في تلك النواحي على صدورهم العظام[4] في تسيير الحكم، والأمر ذاته ينطبق على أغوات[5] الإنكشارية أيضاً[6]، كما كان للفساد اليد الطولى في سوء العمل وتسيير لشؤون الدولة[7].

أما من الناحية الإدارية فقد كان الحاكم الأعلى للدولة العثمانية هو السلطان، ويعدّ القوة المؤثرة سياسياً وعسكرياً[8]، بينما كانت الهيئة الثانية بعد السلطان ممثلة بالصدر الأعظم، أو الوزير الأول ويليه شيخ[9] الإسلام، أو المفتي

[3] سليمان القانوني(926-973هـ/1520-1566م) : هو عاشر سلاطين آل عثمان ولد في طرابزون سنة(1494م) وجلس على العرش بعد وفاة والده سليم عام(1520م) تسلم زمام السلطة ووضع لها عدة قوانين في الإدارة لذلك لقب بالقانوني ومن أبرز الانتصارات التي حققها السيطرة على بلغراد عام(899هـ/ 1521م)، وسيطر على رودس عام(928هـ/ 1522م)، وانتصر في معركة موهاكس على المجر عام(903هـ/1525م)، ثم حاصر فيينا وأقام عدة تحالفات مع أوروبا خاصة فرنسا وتوفي سنة(973هـ/ 1566م). طوباش، نوري. العثمانيون رجالهم العظام ومؤسساتهم الشامخة، دار الأرقم، استانبول،2016م، ص197.

[4] الصدر الأعظم : كان الصدر الأعظم يعتبر الممثل المطلق للسلطان، ويصدر باسمه القرارات ويشرف على كافة مؤسسات الدولة، وله الحق في تعيين كبار رجالاتها وضباط جيشها لكونه حامل الختم السلطاني وفي عهد السلاطين الأوائل لم يكن يطلق على صاحب هذا المنصب لقب وزير، بل كان يسمى بيرفان "pervane"، أو بيرفانجي "pervaneci" وهو مصطلح فارسي اقتبسه العثمانيون من السلاجقة ومدلول هذا المصطلح قائد، أو مفتش أو صاحب رتبة صدرت بها براءة سلطانية.الشناوي، عبد العزيز. الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة،2004م، ج1، ص358؛ الجميل، سيار. تكوين العرب الحديث، دار الشروق للنشر والتوزيع، رام الله، 1997 م، ص60.

[5] الاغوات: جمع آغا، كانت تطلق على أفراد فئات كثيرة من موظفي الدولة، وكان يلحق بوجه خاص بأسماء شاغلي المناصب العسكرية. بوحوش، عمار. التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م، ص66؛ غزة. الصراع على السلطة بين الإنكشارية ورياس البحر في الجزائر العثمانية "مرحلة الدايات أنموذجاً "1671-1830م، رسالة ماجستير، جامعة محمد بوضياف، الجزائر، 2020م، ص19.

[6] الإنكشارية : لفظ إنكشاري هو تركي وهو مكون من مقطعين أي يني تشري وتعني الجنود الجدد، وهم مشاة الجيش النظامي العثماني والطائفة الممتازة في الجيش الذي كان يعرف بالقابيقولية (الجيش النظامي الذي كان يضم الخيالة +المشاة)، وقبل تأسيس الانكشارية أي قبل عصر مراد الأول لم يكن للعثمانيين جيش نظامي، ودعت الحاجة إلى وجود جيش قوي منظم على غرار السلاجقة فتقرر تأسيس الجيش، وتعود نشأة هذا الجيش إلى عهد السلطان أورخان(704-763هـ/1326-1362م). دسوقي، ناهد. بدايات الإصلاح في الدولة العثمانية وأثر الغرب الأوربي فيها (1789-1807م)، منشأة المعارف، الإسكندرية، 2006م، ص51؛ باريارو، نيقولو. الفتح الإسلامي للقسطنطينية (يوميات الحصار العثماني 1453م)، تر : حاتم عبد الرحمن الطحاوي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر،2002م، ص122؛ مؤلف مجهول.التحفة السنية في تاريخ القسطنطينية، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت،1887م،ص10.

[7] غربي، الغالي.دراسات في تاريخ الدولة العثمانية والمشرق العربي(1288-1916م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م، ص201.

[8] ياغي، إسماعيل أحمد. الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكات، الرياض، ط1، 1997م، ص78.

[9] شيخ : كلمة تعني في الأساس سيد القوم أو شيخ القبيلة، ثم أطلقت على مشايخ الطرق الصوفية والأساتذة، وزعماء العائلات، أما العلماء فكانت تطلق عليهم ألقاب أخرى كحجة الإسلام وركن الإسلام، وشمس الإسلام رغم هذا حمل الكثير من العلماء لقب شيخ الإسلام خاصة الذين عرفوا بصدار الفتاوى المهمة.ياغي، تاريخ الدولة العثمانية في التاريخ الحديث، ص24.

وكانوا ملتزمين بأوامر السلطان[10]، ثم أخذت تلك السلطة الحاكمة بالضعف في عهد السلطان سليمان القانوني(926-973هـ/1520-1566م) بعد أن وقع تحت تأثير زوجته روكسلانة(roxlana)[11]، وبموته تتابع على العرش العثماني سلاطين ضعاف فكثرت المفاسد والمؤامرات وفي تلك الفترة كثر النزاع على العرش، وظهرت عادة قتل السلاطين العثمانيين لأبنائهم، وإخوتهم خوفاً من منافستهم على العرش[12]، تنطوي هذه العادة انطلاقاً من دلالة سياسية ثابتة قوامها تغليب المصلحة السياسية العليا للدولة العثمانية[13].

لم تكن فكرة الافتقار لمقومات السياسة السبب الوحيد فيما شهده العرش العثماني من ضعف بل كان لوصول السلاطين الصغار في السن أثر واضح في تلك الناحية مثل السلطان أحمد الأول(Sultan Ahmed I) **(1012-1026هـ/1603-1617م)** وكذلك السلطان عثمان الثاني(Sultan Osman II) **(1027-1031هـ/1618-1622م)** وصغر سن السلاطين، جعل الفرص سانحة لبروز عدد من الفئات(الحريم، الصدور العظام، أغوات الإنكشارية، شيخ الإسلام) التي أخذت تلعب دوراً في الشؤون العامة وفق مصالحهم، وأهدافهم فبلغ بهم الأمر الإطاحة بكثير من رجال الدولة الذين كانوا يتعارضون مع توجهاتهم المختلفة[14].

فتفشت إثر ذلك مظاهر الترف والبذخ واللهو مطلع القرن السابع عشر وانساق السلاطين ورائها بعيداً عن الاهتمام بشؤون الحكم، فكانوا يفضلون الجلوس في قصورهم، والانعزال وراء تلك الأشياء دون أدنى اهتمام بما يحدث خارجه في مختلف نواحي الحياة[15].

هذا كما نتج عن الامتداد الهائل للدولة العثمانية ضعف في الحكومة المركزية وعدم سيطرتها على الولايات[16]، وانتشرت المفاسد في أركانها متمثلة بالعسف، والظلم، والجور في جباية الضرائب، واستغلال الولاة سلطتهم لصالحهم الشخصي وعدم الاهتمام بالسلطة المركزية وأوامرها[17]، كذلك لم يكن هناك أي بواعث حقيقية للعمل لصالح رعايا الدولة من قبل موظفي الإدارة العثمانية وكانت النتيجة العملية لهذه النظرة الخاطئة هي التغير الشامل كمعايير الكفاءة القديمة، وإحلال المعيار النقدي محلها، كما طرحت من المناصب الإدارية والمدنية والأرض والامتيازات[18]

---

[10] فواز، عبد العزيز. تاريخ الشعوب الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت، ص138.

[11] روكسلانة: زوجة السلطان سليمان القانوني ولدت في بلدة روهاتين عام (911هـ/1506م) في أوكرانيا، ويعتقد إن والدها قس روسي وفي عام(926هـ/1520م) اختطفت من قبل التتار إثناء هجماتهم، وقدمت جارية للسلطان. عبد الحكيم، منصور. السلطان العاشق سليمان وهويام، دار الكتاب العربي، القاهرة، 2015م، ص76.

[12] عودة، محمد عبد الله. تاريخ العرب الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 1989م، ص111.

[13] الضيقة، حسن. الدولة العثمانية الثقافة –المجتمع–السلطة، دار المنتخب، بيروت، ط1، 1997م، ص76.

[14] مانتران، روبير. تاريخ الدولة العثمانية، تر :بشير السباعي، دار الفكر، القاهرة، 1992م، ج2، ص343-402.

[15] طقوش، محمد. العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة(1299-1924م)، دار بيروت، لبنان، 1995م، ص243.

[16] حوراني، آلبرت. الأسس العثمانية للشرق الأوسط الحديث، دار النشر العربية للدراسات والتوثيق، لبنان، م2، ع15، 1980م، ص27.

[17] الحصري، ساطع. البلاد العربية والدولة العثمانية، دار صادر، بيروت، 1965م، ص49.

[18] الامتيازات : لغوياً تعرف بمعنيين في اللغة اللاتينية القديمة تسمى " CAPUT "و " CAPITAL " وفي اللغة الحديثة فقد عرفت باسم" CAPITULM"، والتي تعني الأساسيات في الوثائق أو الخطوط العريضة في المعاهدات أما المفهوم الاصطلاحي فهي تلك الحقوق التي تمنح إلى الدول الأجنبية من قبل دول أخرى، ولا يتم ذلك إلا بناء على اتفاق، أو معاهدة بينهما وهي تأخذ عدة أشكال تجارية، دينية، سياسية، قضائية.العريض، وليد. تاريخ الامتيازات في الدولة العثمانية وآثارها، مجلة دراسات الجامعية الأردنية، عمان، م24، ع1، 1997م، ص145.

من مختلف الأنواع في المزاد العلني[19]، ولم تقتصر تصرفات الولاة على ما ورد سابقاً بل عمد الكثير منهم إلى سلب أموال الخزينة العامة للدولة وعدم إرسالها للسلطان، وظهرت الأطماع الشخصية ممثلة في الصراع على النفوذ بينهم مستعملين في ذلك القوة العسكرية كخيار وحيد ودائم لا بديل له[20]، كما يمكن رصد ظاهرة بيع المناصب ضمن هذه التحولات الإدارية، فقد كان الموظف يشتري عمله بمبلغ معين من المال، لكن سرعان ما يسترد ما خسره عن طريق العديد من الوسائل كالرشوة بين هؤلاء الموظفين، مما انعكس سلباً على مؤسسات ومشاريع الدولة العثمانية[21].

أما من ناحية موضوع الحريم ومكانتهم في الدولة العثمانية، فنرى في البداية أن الدين الإسلامي كان له رأي حول إمكانية دخولها الحيز السياسي وهل هي قادرة على ذلك وعلى تحمل تبعات تلك الناحية بمشقاتها المختلفة فكان ذلك صعباً جداً عليها من الناحية الإسلامية، فكانت شؤون الأسرة أولى واجباتها التي حفزها عليها[22]، وعند الحديث عن الدور السياسي الذي مارسته المرأة في العصر العثماني نجد أن سيدات الحرملك أو الحريم السلطاني "نساء السلطان " كانت الواحدة منهن لها دور كبير على درجة عالية من الخطورة[23]، حيث استطاعت هذه الفئة من النساء أن تتدخل في الشؤون السياسية العليا للدولة، بل وتعدى الأمر إلى أبعد من ذلك فاستطعن القيام بأدوار في توجيه هذه السياسة إلى ما يخدم مصالحهن، ومآربهن الشخصية[24].

غدت هذه الفئة في مراحل أخرى من مراحل الدولة العثمانية تشكل أقوى وأخطر مراكز القوى المهيمنة على المسار السياسي في الدولة على الإطلاق، حتى وصل بهن الأمر في كثير من الأحوال لإشعال نار الفتنة والحرب بين الدولة العثمانية وأعدائها من الدول المجاورة لها سواء آسيوية أو أوروبية، ولم يكتفين بذلك فتدخلن أيضاً في السياسة الداخلية للدولة وتدخلن في شؤون الجيش من تغيير قياداته العليا، وما شابه ذلك من تغيير وتعيين كبار رجال الدولة والموظفين وتقليدهم المناصب السياسية العامة أو عزلهم أو استبدالهم.

لقد خاضت الكثير من نساء الحرملك في مضمار السياسة وانتهجت الكثيرات منهن هذا المنهج وسلكن نفس دروب سابقتهن وذلك باستخدام نفوذهن، وسطوتهن وقربهن من السلطان، حتى عاد ذلك بالضرر على أمور الدولة

---

[19] عبد العزيز، عمر. تاريخ المشرق العربي، دار النهضة العربية، مصر، 1985م، ص142.

[20] أوغلي، أكمل الدين إحسان. الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، تر : صالح سعداوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إستانبول، 1999م، ج1، ص270.

[21] السيد، محمد السيد. انهيار الدولة العثمانية، مكتبة الآداب، القاهرة، د.ت، ص36-41؛ شنيرب، روبر. تاريخ الحضارات العام، تر: يوسف أسعد، دار عويدات للنشر والطباعة، بيروت، 2006م، ج6، ص309

[22] الأنصاري، عبد الحميد. الحقوق السياسية للمرأة في الإسلام، حولية الشريعة والدراسات الإسلامية، قطر، ع 2، 1982م، ص241.

[23] تعتبر روكسلانة من أفضل النماذج على استفحال نفوذ النساء في الدولة العثمانية فقد سيطرت على قلب السلطان سليمان القانوني وعقله، وتحولت إلى مستشارته الأولى في الدولة وكذلك أصبحت السيدة الأولى في البلاط العثماني، واحتجب السلطان في القصر ليكون قريباً منها وترك قيادة الحملات العسكرية

بدأت مؤامرات روكسلانة مع محاولتها التخلص من الأمير مصطفى الذي يعد الابن الأكبر للسلطان سليمان القانوني وأرادت أن يحل مكانه السلطان سليم، وتمكنت من تحقيق مرادها في إقناع السلطان سليمان القانوني بالتخلص من ابنه وقتله، والتي كان لها انعكاسات خطيرة على الدولة العثمانية، فقد حرمت الدولة من سلطان قوي والذي أجمع معاصروه على أنه ذو مؤهلات وكفاية. قازان. سلاطين بن عثمان بين قتال الأخوة وفتنة الإنكشارية، ص52-53.

[24] الشناوي، عبد العزيز. الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1980م، ج1، ص598.

وبالأخص خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر[25].

على الرغم من أن البداية الحقيقية لتدخلهن بالسلطة خلال فترة حكم السلطان سليمان القانوني، إلا أنه يمكن رصد تدخلهن بشكل موسع مع تولي السلطان سليم الثاني(Sultan Selim II) (974-982هـ/1566-1574م) مقاليد الحكم[26].

كان أول سلطان لا يقود الجيش بنفسه، وظهر في عهده ما يعرف بسلطنة الحريم [27] لأنه كان يقضي معظم سنوات حكمه الأخيرة في الحريم وسمح لهم بالتدخل في الحكم[28].

عند قراءة دور الحريم السياسي في الدولة العثمانية لا بد من الولوج إلى أحد أهم العناصر المشاركة لهم من حاشية السلطان ألا وهم الخصيان والذين تعددت مهامهم فلم تكن مقتصرة على الخدمة والحراسة للحريم فحسب بل كان لهم دور واضح في حياكة المؤامرات، وذلك من خلال إشراكهم بها من قبل سيداتهم الذين كانوا دائماً يعملون على إيصال أبنائهن إلى العرش أو التخلص من غريماتهن[29]، وكان يطلق على رئيس الخصيان اسم أغا دار السعادة، أو "القيزلرأغاسي"[30] قائد البنات " وقد كانت له مكانة كبيرة، ومهمة استمدها من خلال اعتباره مسؤولاً عن

[25] الثقفي، محمد أحمد. زواج السلاطين العثمانيين من الأجنبيات وأثره في إضعاف الدولة، رسالة ماجستير منشورة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1432هـ، ص29؛ أوغلي. الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ص155.

[26] السلطان سليم الثاني (974-982هـ/1566-1574م): خلف أبيه السلطان سليمان القانوني وهو السلطان الحادي عشر من سلاطين الدولة العثمانية، وهو ابن روكسلانة الروسية جلس على العرش سنة(974هـ/1566م)، وعمره أربعة وأربعين سنة، عقدت في عهده معاهدات مع النمسا وفرنسا وتم فتح قبرص و وتم تأديب أمير اليمن الزيدي المطهر، توفي سنة(982هـ/1574م)، ودفن في مسجد آيا صوفي. آصاف بك، حضرة عزتلو. تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995م، ص67؛ الدغيم، محمود السيد. تاريخ البحرية العثمانية حتى نهاية عهد السلطان العثماني سليم الثاني بن سليمان القانوني بن سليم الأول(982هـ/ 1574م)، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة،1994م، ص28-30.

[27] سلطنة الحريم : ظهر هذا المصطلح للمرة الأولى عندما استخدمه المؤرخ العثماني أحمد رفيق عنواناً لكتابه الذي نشره عام (1335هـ/1916م)، ويشير هذا المصطلح إلى تدخل النساء في قصر السلطان وفي شؤون الحكم والسياسية لفترة تزيد عن المائة عام استمرت خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر. رفيق، أحمد. قادينلر سلطنتي، أوجنجي طبع، استانبول، 1332هـ، ص1.

[28] أرسلان، شكيب. تاريخ الدولة العثمانية، دار ابن كثير، سوريا، ط1، 2011م، ص189.

[29] bkz. Cagatayulucay.haremII.turktarihkueumubasimevi. 3 baski. Ankara.1992.s7

[30] آغا دار السعادة : آغا : لغوياً : كلمة فارسية الأصل تكتب "آقا" وجمعها "آقان " أو "آقاوان " أو "آقيان" وتعني رئيس الأسرة، ودخلت إلى اللغتين الكردية والتركية، فعند الأكراد تعني الشيخ أو الكبير، أما عند الأتراك فتحولت إلى آغا وتعني الرئيس، أو السيد أما من الناحية الاصطلاحية : فقد أطلقت على أصحاب المناصب العليا، حيث صارت كلمة آغا أيام الدولة العثمانية تطلق على الشيخ، أو السيد وصاحب الأرض، ورئيس خدمة البيت وكان كثير من موظفين الحكومة في الوظائف العسكرية يلقبون بكلمة آغا مثل قول أغاسي، وبلوك أغاسي، وجاويش أغاسي.

أما مصطلح دار السعادة : فلغوياً تتكون من كلمتين عربيتين الأصل الأولى "دار " وتعني المنزل أو محل أو مكان أما الأخرى السعادة، فتعني كل ما يدخل البهجة والفرح على النفس، أما اصطلاحاً فقد كان لفظ "دار السعادة " يستخدم على وجه الخصوص في القصر العثماني فقط، وتطلق على الجناح الذي يعيش فيه السلطان مع أهل بيته من النساء والقائمات على الخدمة لذلك كان يطلق على المسؤول عن حماية هذا الجناح "آغا دار السعادة ". باشا، حسين. الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1965م، ج1،ص36؛ بركات، مصطفى. الألقاب والوظائف العثمانية (دراسة في تطور الألقاب والوظائف منذ الفتح العثماني لمصر حتى إلغاء الخلافة العثمانية من خلال الآثار والوثائق والمخطوطات(1517-1924م)، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000م، ص173.

الإشراف العام على البلاط السلطاني وينوب عن السلطان في إدارة شؤونه فضلاً عن كونه حلقة الوصل بين السلطان، ودائرة الحريم " الحرملك " ولم يقتصر الأمر على ما سبق، بل كان آغا دار السعادة مخولاً من قبل السلطان بكل ما يتعلق بشؤون التعيينات والترقيات داخل القصر السلطاني وخارجه في بعض الأحيان، ويعد من المقربين جداً للسلطان، وكاتماً لأسراره والمسؤول عن مراسم القصر، وكان يعهد له جميع الرسائل والعرائض، والوثائق المرسلة إلى السلطان، وهو الشخص الوحيد الذي يسمح له بالتحدث مع السلطان بشكل شخصي ومباشر وهذا ما جعله من الشخصيات المميزة في البلاط والدولة[31].

استمر نفوذ آغا دار السعادة بالنمو حتى أصبح بمستوى نفوذ الصدر الأعظم، بسبب اتصاله المباشر والمستمر بالسلطان فضلاً عن علاقته الوثيقة والمباشرة بسيدات الفئة الأولى من الحريم السلطاني صاحبات النفوذ والسلطة لا سيما السلطانة الوالدة سيدة الحرملك الأولى بلا منازع الذي جعله الآمر الناهي بعد السلطان في الدولة العثمانية حتى أصبح الوزراء وكبار الموظفين يتقربون إليه، و يستعطفونه للمحافظة على مراكزهم[32].

مع مرور الوقت تنامى دوره أكثر وساعده في ذلك دوره كصلة وصل بين السلطان ووالدته والاعتماد عليه من قبل السلطان إدارة شؤون الحرملك، وفي ذلك يقول أحد المؤرخين:" **إن والدة السلطان كانت هي حاكمة جناح الحريم وأن آغا دار السعادة كان بمثابة رئيس وزرائها** "[33]، وكغيره من الشخصيات المقربة من السلطان والفاعلة داخلياً ومع بروز حالة ضعف السلاطين وزيادة نفوذ الحريم خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر الميلاديين، تعاظم نفوذ آغا دار السعادة حتى أخذ يتدخل في تعيين الصدور العظام وعزلهم، كما استطاع من خلال نفوذه الواسع التأثير في السلاطين أنفسهم وهذا يرجع إلى اتصاله المباشر بسيدات الحريم اللواتي أخذن في هذه المرحلة يتدخلن، وبشكل سافر في إدارة شؤون الدولة بدافع المصلحة الشخصية، لذا كانت والدات الأمراء يستعن بهم لإيصال أبنائهن إلى منصب ولاية العهد[34].

لم يقلّ دور شيخ الإسلام أهمية عن سواه من حاشية السلطان العثماني ولاسيما أن السلطة العثمانية كانت قد اعتمدت في سياستها على آراء شيوخ الإسلام بوصفهم المرجع الشرعي لقرارات الدولة العثمانية، واستمرت العلاقة بين الدين والدولة منذ بداية تأسيسها إلى نهايتها، وظل الإسلام القوة الأساسية المحركة، والفاعلة في إدارة الدولة العثمانية على كافة مستوياتها السياسية والعسكرية، والاجتماعية والاقتصادية، كما تشكل العقل العثماني والتشريعي وفق المرجعية الإسلامية وانبثقت منها جملة من القوانين والقرارات الدستورية النابعة من الفهم العثماني للإسلام، ومستفيدة من الموروث السياسي الإسلامي على مدار المراحل السابقة [35] حيث مثل شيخ الإسلام الشخصية الثالثة في نظام التشريفات العثماني[36].

---

[31] bkz. Cagatayulucay.haremII,turktarihkueumubasimevi,s7.

[32] بيهم، محمد جميل. فلسفة التاريخ العثماني(أسباب انحطاط الإمبراطورية العثمانية وزوالها)، دار صادر، بيروت، 1954م، ص58.

[33] N.M.PANXER,THE HAREM,PHIAPHI,Aistanbul,1937,P133.

[34] أكمل الدين. والدي السلطان عبد الحميد الثاني (مذكرات الأميرة عائشة)، تر : صالح السعداوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، 1999م، ص162.

[35] A. olusturmanyl,yuzxillar boyunca fark,i ve farkli bir islami siysi proje ilIski zayif havadan dogmamis,dAahaziaydeosmanlll,daha sonra dini develtle baglamayadayan ,selcUklu,ankara,1984.s520.

[36] نظام التشريفات العثماني: تعني كلمة تشريفات –ذات الأصل العربي : الشرف وعلو المنزلة وحسن الاستقبال، أما المعنى الاصطلاحي لها فهو استقبال رجال الدولة الكبار في الأعياد، والمناسبات واستقبال السفراء، وتوجيه الرتب والنياشين إلى رجال الدولة، وكذلك تنظيم

وكان لفتاواه تأثير كبير في مسار تطور الدولة من خلال إعلان الحرب، أو قمع حركات المعارضة وفي الإصلاحات وغيرها[37].

كانت العلاقة متوازنة بين مؤسسة الباب العالي، ومؤسسة شيوخ الإسلام وبين المؤسسة العسكرية، وظلّ هذا التوازن قائماً مادامت قوة القصر هي المسيطرة، وكان يحدث الخلل في هذا التوازن في الأوقات التي يتولى فيها سلاطين صغار أو ضعاف مقاليد القص، وهنا تظهر سيطرة الصدر الأعظم وقوته، وإذا ما تزامن مع ضعف السلطان ضعف الصدر الأعظم، تظهر قوة شيخ الإسلام[38].

خلال فترة القرن السابع عشر الميلادي بشكل عام بلغ شيخ الإسلام مكانة هامة، فقد كان يشارك السلطان في اتخاذ القرارات ولاسيما مع وصول هؤلاء السلاطين الصغار إلى الحكم، ولم يكونوا من ذوي الموهبة والكفاءة[39] إن في طبيعة علاقته مع السلطان، ودوره في شؤون الدولة كان يقحمه في نزاعات السياسة الداخلية، وفي صراع النفوذ، والتأثيرات ولأن شيخ الإسلام كان يستطيع بفتواه أن يعطي الشرعية للانتفاضة ضد السلطان، أو الصدر الأعظم أو يعتبرها مخالفة للشرع فقد كان في وضع يسمح له بلعب دور حيوي، وحاسم في خلع السلطان العثماني وغيره[40].

ثانياً–الجانب العسكري:

مع أواخر القرن السادس عشر الميلادي وأوائل القرن السابع عشر الميلادي شهد نظام التجنيد حالة من

أصحاب المناصب والرتب في أثناء مشاركتهم في المراسم والاحتفالات، ومراعاة تقديم بعضهم على بعضهم الآخر، بحسب رتبته ودرجته أو مراعاة الترتيب والتصنيف الذي يجب أن يكون عليه رجال الدولة وموظفوها في المناسبات الرسمية.

وضعت القوانين والأصول المتبعة في التشريفات في الدولة العثمانية في عهد السلطان محمد الفاتح ومع تطور تشكيلات الدولة بعد ذلك زاد الاعتناء بالمراسم والتشريفات في عهد السلطان سليمان القانوني إذ تأسس في عهده قلم (دائرة) التشريفات ووظيفة التشريفاتي وهو المسؤول عن هذه المراسم، هذا وقد احتلت المراسم والتشريفات مكانة مهمة في قانون نامه الفاتح، حيث اشتملت على القسمين الأولين من القانون، فجمعت القواعد المتعلقة بالمراسم، والتشريفات في الدولة العثمانية في هذا القانون الذي كتبه النيشجانجي "ليس زاده محمد أفندي "بلسان السلطان وكانت المراسم تحتل أول قسمين من أقسام القانون القسم الأول عن بيروقراطية الموظفين الكبار في المركز والولايات ومكانهم في التشريفات والقسم الثاني عن قواعد الذهاب إلى غرفة العرض والديوان والأعياد والخروج للحملات.

يتكون قلم التشريفات من رئيسه التشريفاتجي، ويساعده مجموعة من الموظفين مثل المعاون وهو "تشريفات كيسه داري ""حافظ كيس التشريفات " و " تشريفات خليفه سي " "خليفة التشريفات " و "قفطان باشي "، "موظف القفطان "، و " تشريفات كيسه دارى ياماغى"، " مساعد حافظ كيس التشريفات " و " كيسه دار "، وجميعهم مكلفون بالحفاظ على سجلات مراسم الدولة والقصر أما القفطان باشي فهو يحافظ على الخلع التي يلبسها السلطان أو الصدر الأعظم ويخرجها عند الحاجة. عمر، أحمد مختار. معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، 2008م، ص1191؛ أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، ص532؛ أكمل الدين. الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج1،ص201–202؛ كنج، يوسف إحسان. دليل الأرشيف العثماني، ترجمة : صالح سعداوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، استانبول، 2008م،ص113–114.

D.Alikilic.yuzyilosmanlisaray,tesrifativetorenleri,yayinmamis,doktora,tezi.ataturk universitesi,erzurum.2002.s14.

[37] العكيلي، علي مزهر. النظام السياسي في الإسلام دراسة تحليلية مقارنة حول النظام السياسي عند المسلمين، أطروحة دكتوراه، كلية القانون والسياسة، الدنمارك، 2014م،ص237؛ هايد، أوربيل. موقف العلماء من الإصلاحات في عهد سليم الثالث ومحمود الثاني، تر : عبد اللطيف الحارس، دار الاجتهاد للترجمة والأبحاث والنشر، بيروت، 2000م،ص43–44.

[38] مخلوف، ماجدة. الدولة العثمانية من الإصلاح إلى الحداثة، دار البشير، القاهرة، 2021م، ص63.

[39] كيدو، أكرم. مؤسسة شيخ الإسلام في الدولة العثمانية، تر : هاشم الأيوبي، منشورات جروس برس، لبنان، 1992م، ص106.

[40] مرجع نفسه،، ص116.

الخلل عندما تهاونت الدولة في تطبيق القانون المعروف بالدفشرمة [41]، وتسرب الغرباء إلى صفوف الجند ولا سيما أثناء حفلات الختان[42] التي أقامها السلطان مراد الثالث(Sultan Murad III) (983-1003هـ/1574-1595م) [43] لابنه محمد عندما سمحت الدولة للذين أعدوا تلك الحفلات بالانضمام إلى صفوف الإنكشارية دون تعليم، أو تدريب تحت اسم قول قرشي أي أخوة جند السلطان[44]، ويعتقد أن السلطان مراد الثالث كان راغباً في إفساد تنظيم الإنكشارية بعد أن لاحظ مدى خطورتهم على الدولة لقوة نفوذهم غير أن هذا الإجراء زعزع نظام الأوجاق[45] من أساسه فبعد أن كان هذا الأوجاق من نشأته، وحتى زمن السلطان مراد الثالث لا يسمح بالانتظام بين أفراده إلا للغلمان الأعاجم، تحول مع مرور الوقت إلى محور لاستقطاب التجار والصناع كنوع من المفاخرة فآل ذلك إلى فساد هذا النظام[46]، وبالتالي دخلت فيه عناصر عن طريق الرشوة فكانت تحمل صفة الفساد، وبالتالي يمكن القول أن البداية الواضحة لفساد الإنكشارية كانت مطلع القرن السابع عشر الميلادي، والذي استشرى بصورة أكبر مع مرور الوقت وتحولت الإنكشارية إلى أداة لفشل الحكم واضطراب المجتمع في مختلف الميادين[47]

غابت في فترة القرن السابع عشر مظاهر الكفاءة والقدرة والخبرة العسكرية من صفوف الإنكشارية ولاسيما بعد أن حصل أفرادها على حق الزواج فأصبحت وراثية دون أي معايير والذي كان سبباً رئيسياً في ذلك الفساد الذي حل

[41] الدفشرمة : كلمة مأخوذة من الفعل دفشرمك في التركية ويعني تسجيل الأسماء، وطبقاً للأسلوب الذي كان يتم به اختيار الأطفال، وتجميعهم من أسرهم، فإن نظام الدفشرمة كان عبارة عن تجميع أولئك الأطفال كضريبة رأس فرضها السلاطين إجبارياً على الأسر المسيحية التي لم تعتنق الإسلام فبالنسبة للعثمانيين كان هذا النظام بوفر عناصر جديدة تدخل في صفوف الجيش. شوجر، بيترو. أوروبا العثمانية 1354-1804م (في أصول الصراع العرقي في الصرب والبوسنة)، تر : عاصم الدسوقي، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، 1998م، ص73.

[42] الختان : مشتق من ختن يقال ختن الغلام والجارية يختتنهما ختناً، والاسم الختان، والختانة وهو مختون، وقيل الختن للرجال والخفض للنساء والختن للمختون الذكر والأنثى في ذلك سواء والختانة صناعة الخاتن والختان موضع الختن من الذكر وموضع القطع من نواه الجارية وختان الذكر هو قطع الجلدة وهي القلفة التي تغطي الحشفة من الرجل، والقلفة هي الجلدة في رأس أو مقدمة الذكر. ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين (ت711هـ/1312م). لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ت، ج3، ص137؛ الفيروز آبادي، أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب(ت817هـ/1415م). القاموس المحيط، دار الكتاب العربي، مصر، 1987م، ج1، ص1540؛ الفيومي، أحمد بن محمد بن علي (ت770هـ/1358م). المصباح المنير، دار الحديث، القاهرة، 2000م، ج1، ص164؛ الرامفوري، ناصر الإسلام المولوي محمد عمر(855هـ/1451م). البداية في شرح الهداية، دار الفكر، سوريا، 1980م، ج1، ص274.

[43] مراد الثالث (983-1003هـ/1574-1595م): هو السلطان العثماني الثاني عشر، ابن سليم خان ولد سنة (953هـ/1564م)، وتربى في دار السعادة حتى حصل العلوم وبرع فيها وكان يميل للتصوف، كريم الطبع له شعر وكلام فيه سخر المماليك بسيفه توفي سنة(1003هـ/1595م)، وله من العمر خمسون سنة.حاجي، خليفة. فذلكة أقول الأخيار في علم التاريخ والأخبار (تاريخ ملوك آل عثمان)، تح : سيد محمد السيد، جامعة جنوب الوادي، مصر، د.ت، ص315-325.

[44] غازي، أماني جعفر. دور الإنكشارية في إضعاف الدولة العثمانية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الشريعة، جامعة أم القرى، 2004م، ص160-161.

[45] الأوجاق: معناه موقد النار في اللغة التركية وهي المنطقة العسكرية المتكونة من الأتراك أو من المرتدين عن المسيحية. سبنسر، وليام. الجزائر في عهد رياس البحر، تر : عبد القادر زبانية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2006م،ص42.

[46] الغالي، غربي. دراسات في تاريخ الدولة العثمانية والمشرق العربي (1288-1916م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2011م، ص131.

[47] البحراوي، محمد عبد اللطيف.حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني 1808-1839م، ط1، دار التراث للطباعة والنشر، الكويت، 1978م،ص83.

بالمؤسسة العسكرية هو ضعف شخصية السلاطين العثمانيين، فضلاً عن تراجع مستواهم القتالي[48]، مما دفع الكثير من السلاطين للاستعانة بقوات أخرى من بلاد القرم، ومناطق أخرى[49].

أما من ناحية تفسير التراجع الحاصل في مستوى الجيش العثماني أمام الجيوش الأوروبية كان لا بد من توضيح أمر مهم يتمثل بأن القوات العثمانية باعتبارها جيوشاً إسلامية ذات هدف محدد وواضح كانت تعتمد على الجنود النظاميين وعلى المتطوعين والمجاهدين بينما كانت الجيوش الصليبية والأوروبية تعتمد على المرتزقة حتى نهاية القرن الخامس عشر[50]، وقد ذكر كبار القادة الأوروبيين مثل الكونت مونتي كوكللي (Monte Coccoli)[51]: " لايمكن الانتصار على الأتراك ما لم يؤسس جيش نظامي دائم في أوروبا كالأتراك "، ومن شهادة هؤلاء يمكن القول أن الجيش العثماني ظلّ يمتلك العديد من جوانب التفوق، لكنها انتقلت إلى الجيوش الأوروبية إثر احتكاكها بالجيش العثماني، وبالتالي حصل نوع من التوازن في القوى، ومن ثم تدهور ذلك التفوق من الناحية العثمانية بعد الضعف الذي أخذت تشهده الدولة على كافة النواحي ومنها العسكرية[52].

أما بالنسبة للبحرية العثمانية فهي بدورها شهدت حالة من الضعف منذ أواخر القرن السادس عشر الميلادي كجزء لا ينفصل من المنظومة العثمانية، ويرتبط هذا التحول بوصول قواد إلى دفة القيادة للأسطول العثماني من غير العارفين بشؤون البحرية، لقد ظهر ذلك الضعف جلياً منذ هزيمة العثمانيين في معركة ليبانتو (عام 979هـ/1571م) [53].

---

[48] شهاب، رنا عبد العزيز. حركة الإصلاح العثماني قبل عهد التنظيمات، مجلة الدراسات التاريخية والثقافية، م11،ع2007،39م، ص201.

[49] كوارترت، دونالد. الدولة العثمانية(1700–1922م)، تر : أيمن الأزمنازي، مكتبة العبيكان، الرياض، 2004م، ص99–100.

[50] العسلي، بسام. فن الحرب الإسلامي في العهد العثماني، دار الفكر، بيروت، د.ت، م5، ص506.

[51] مونتيكوكلي: القائد العام للإمبراطورية الرومانية المقدسة وأحد مؤسسي العسكرية الحديثة في أوروبا ألف كتاب (فن الحرب) توفي عام (1681م). أوزتونا، يلماز. تاريخ الدول العثمانيَّة، مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا، 1988م، ج2، ص385.

[52] مصدر نفسه، ج2، ص384–385.

[53] معركة ليبانتو: حدثت معركة ليبانتو البحرية بين الدولة العثمانية والأساطيل الصليبية على برزخ كورنث، بالقرب من ليبانتو وهو أحد الموانئ العثمانية في اليونان في 7 تشرين الأول /أكتوبر سنة (979هـ/1571م)،ففي الوقت الذي كانت فيه البحرية العثمانية تهاجم قبرص، كانت تدور مفاوضات في الدوائر الحكومية الأوروبية بين البابا بيوس الخامس، وملك إسبانيا فيليب الثاني، وجمهورية البندقية، هدفها تأليف عصبة مقدسة تتصدى لتقدم العثمانيين في أوروبا، فكانت الظروف السياسية تحث العصبة المقدسة على التحرك السريع ضد العثمانيين الذين تمكنوا من فت قبرص، وغزت مراكبهم جزيرتي كريت و زانطة وفتحت جيوشهم مدينتي دلسينو وأنتباري الواقعتين على البحر الأدرياتيكي، فقررت العصبة جمع قواتها ومنع تقدم العثمانيين في إيطاليا، واسترداد المواقع التي خسروها لا سيما في شمال إفريقيا واشتبك الاسطولان في معركة طاحنة، وتعرضت البحرية العثمانية لأضرار بالغة في هذه المعركة في عهد السلطان سليم الثاني وتعتبر أكبر هزيمة بحرية تعرضت لها الدولة العثمانية، وكانت النتائج فادحة فقد اسرت البحرية الصليبية مائة و وثلاثين سفينة عثمانية، وأحرقت وأغرقت ثلاثة وتسعين سفينة وغنمت ثلاثمائة مدفع وتكبد العثمانيون عشرون ألفاً بين قتيل وأثير، وقد ذكرت المصادر العثمانية هذه المعركة باسم (سنكن)، وبينت أن السبب الرئيسي لهذه الخسارة في هذه الحرب البحرية هو وجود عدد من القادة أمثال بيرتيف، وميزين زاده علي باشا، والذين كان قد تم إحضارهم إلى هذه المناصب من ميدان الإنكشارية، إلا أنهم غير مؤهلين من الناحية البحرية، بالإضافة إلى ذلك أن السفن العثمانية التي كانت في البحر بشكل مستمر، ولمدة سبعة أشهر اعتباراً من شهر آذار= =/مارس كانت بحاجة إلى الصيانة والإصلاح، وأن طاقمها البحري كان متعباً، كما أن بعض أفراده تم تسريحهم، وآخرون كانوا مجازين، فتم تعزيز الطاقم البحري من قبل الفرسان من غير البحارة، وفي الحقيقة كانت خسارة العثمانيين خسارة معنوية، وليست مادية على الرغم من عدد القتلى، ويمكن عدها بداية التقهقر الذي حل بالدولة العثمانية، وزالت شهرتها بأنها دولة لا تقهر، وثبت فعلياً إمكانية قهرها. فريد بك المحامي، تاريخ الدولة

على الرغم من تجديد الأسطول بسرعة فائقة، إلا أن الأشخاص الذين تولوا أمره كانوا من غير العارفين بشؤونه[54]، كما كان لصناعة السفن وتطويرها أثر في ذلك الضعف، فقد بقي العثمانيون يعتمدون في تلك الفترة على السفن القديمة بينما كان الغرب الأوروبي يعمل على تطويرها وتزويدها بالمعدات المناسبة[55].

لم يشهد التاريخ العثماني حملات كبرى بعد تلك المعركة، مما انعكس سلباً على نمو وتطوير الأسطول العثماني والجدير بالملاحظة أنه منذ ذلك التاريخ لم يكن خروج الأسطول إلى البحر المتوسط لخوض حروب كبرى، بل من أجل المحافظة على السيادة العثمانية في الجزء الشرقي من هذا البحر باستثناء بعض الغارات الخاطفة، والسريعة مع انطلاقة القرن السابع عشر الميلادي[56]، وبصورة عامة يمكن إرجاع السبب الرئيسي للاضطرابات التي بدأت تغير ملامح حياة الدولة العثمانية في أواخر القرن السادس عشر الميلادي إلى العبئ الكبير الذي أثقل كاهلها نتيجة الحروب مع إيران، والنمسا كما كانت هناك بعض الإشارات التي تظهر الضعف العثماني في البحر الأسود، لا سيما عجز الإسطول العثماني عن الانتصار على القوزاق[57] الذين كانوا يغيرون بحرياً على بعض مناطق الدولة العثمانية[58].

لم تقتصر التطورات الحاصلة في القوة العسكرية العثمانية، وفرقة الإنكشارية عند ذلك الحد بل شهدت الدولة في مطلع القرن السابع عشر، و ما بعده عدداً كبيراً من التمردات التي قامت بها فرقة الإنكشارية ضد السلطان والدولة[59]، كما أن أعمالهم غير الانضباطية امتدت لتشمل عمليات السلب و النهب، وكذلك الفرار من الخدمة العسكرية في أحيان أخرى، كما كان للحروب الخاسرة التي خاضها العثمانيون ضد الأوربيين أكبر الأثر في سخط الإنكشارية على الحكام وأصبحت المناصب لا تخلو من تدخلاتهم وبما يرضي رغباتهم، كما أصبحوا قوة ترهب السلاطين العثمانيين، وتفرض إرادتها بشكل واضح وصريح[60].

في السياق ذاته، فقد أصبح السلاطين العثمانيون أنفسهم تحت مرمى الإنكشارية لدرجة وصلت بهم الأحوال إلى قتل السلطان كما فعلوا مع السلطان عثمان الثاني(1027هـ-1031هـ/ -1618-1622م)، فقد أجبروه على ترك

العلية العثمانية، ص257؛ ديل، شارلز. البندقية جمهورية أرستقراطية، ترجمة : أحمد عزت عبد الكريم، دار المعارف، مصر، 1948م، ص155

G. Coskun.osmanli deniz tarihinin perveze-inebagti ,doneminde kaptani ,deryalik.deniz kuvvetleri dergisi.ankara,1995,s562.

C.gazioglu.ahmet.kibris turk tarihi.turk donemi 1570-1878,letkosa,kibris arstima ve tayin merkezi.1994,s35-83.

[54] غب، هاملتون. المجتمع الإسلامي و الغرب، تر: احمد أيبش، دار الكتاب الوطنية، أبو ظبي، 2012م، ج1،ص145.

[55] سرهنك، إسماعيل. تاريخ الدولة العثمانيَّة، دار الفكر الحديث، بيروت، 1988م، ص137.

[56] مونتجمري، فيكونت. الحرب عبر التاريخ، تر: فتحي عبد الله النمر، مكتبة الأنجلو مصرية، مصر، 1998م، ص371.

[57] القوزاق: جند فلاحون جائوا من مناطق متعددة وكانوا يتمتعون بنوع من الاستقلال الذاتي مقابل تادية الخدمة العسكريَّة.غربال، محمد. الموسوعة العربية الميسرة،ج2، دار الشعب للطباعة والنشر، القاهرة، ط1965،2م، ص1407.

[58] الحصري. البلاد العربية والدولة العثمانية،، ص47-48؛ بعيو، غانية. التنظيمات العثمانية وآثارها على الولايات العربية الشام والعراق نموذجاً(1839-1876م)، رسالة ماجستير منشورة، جامعة الجزائر، الجزائر، 2008م، ص21.

[59] عمر، مروان محمد. قوة الدولة العثمانية وضعفها، المجلة العلمية لكلية التربية، مصر، ع8، 2017م، ص315-344.

[60] يوسف، عماد عبد العزيز. تمردات الإنكشارية في الدولة العثمانية(1481-1648م)، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، الموصل، م9،ع4، د.ت، ص298-311.

العرش، وأصبحوا أداة ترهق الدولة في حروبها وتسبب لها الهزيمة كما حصل في الحرب مع النمسا عام (1098هـ/ 1687م)، وخسارة الدولة الكثير من ممتلكاتها في أوروبا[61]، هذا ويمكن إعطاء تحليل دقيق وشامل للأسباب التي أدت إلى ثورات الإنكشارية داخل الدولة العثمانية وتقسيمها إلى عدة نواحي كالتالي:

الناحية السياسية: كان القانون الذي سنه السلطان سليمان القانوني والذي سمح بموجبه للإنكشارية بالخروج للحرب بقيادة رئيسهم بدون وجود السلطان على غرار ماكان معتاد في السابق، الأمر الذي لم يكن معتاداً لدى الإنكشارية، فقد كان خروجهم مشروط بوجود السلطان نفسه، وبالتالي فإن هذه الثقة والمكانة التي حصل عليها الكثير من قادة الجيش الإنكشاري تحولت إلى خطر يهدد سلاطينها فقد تزايدت مطالب هؤلاء القادة واستغلوا منصبهم العسكري أبعد استغلال.

ومن الطبيعي مع بروز قوة زعماء الإنكشارية إلى حالة من تعدد السلطة، وبالتالي لن تؤثر هذه الحالة على السلطان بحد ذاته فقط، بل على الدولة العثمانية برمتها، وعلى المستويين الداخلي والخارجي على حدّ سواء، أي يمكن القول: إن هذه السلطة كانت دافعاً أساسياً في عمليات التمرد للجيش العثماني[62].

كان من ضمن الأسباب السياسية أيضاً غياب قانون، أو تشريع معين للحكم في الدولة العثمانية، هذا الأمر أفضى بشكل أو بآخر إلى تعدد النزاعات حول تولي العرش، وبالتالي شكل ذلك ميداناً مناسباً للإنكشارية للتدخل، ودعم أحد الأطراف بما يتناسب مع أهوائهم ومصالحهم[63]، أما من الناحية الاجتماعية، فقد تغيرت الكثير من المفاهيم، والمبادئ التي شكلت عرفاً أساسياً عند تشكيل الجيش الإنكشاري، والتي كان أحدها مبدأ العزوبية، وعدم السماح لهم بالزواج لكي يبقى الجندي متفرغاً لمهامه العسكرية، إلا أن ذلك ألغي خلال القرن 16 م فأصبح يحق لهم الزواج، وتحول الانتساب إلى الجيش الحكومي وراثياً مع غياب المقدرة العسكرية للفرد المنضم إليها، مما ساهم في انحلال تلك الكفاءة للجيش، وسريان الفوضى بين صفوفهم عموماً[64].

أدت عملية الزواج السابقة لأفراد الجيش الإنكشاري إلى تكوين الأسر و ازدياد ارتباطهم بهم، كذلك زاد سعيهم للحصول على الأموال اللازمة بشتى الطرق والأساليب ولو كانت ملتوية[65]، وكانت إقامتهم في منازلهم بأغلب الأوقات على عكس ما كان مفروض عليهم سابقاً، وهو عدم مبارحة ثكناتهم العسكرية[66].

كان من العادات التي قامت عليها علاقة السلاطين العثمانيين مع القوة الإنكشارية هي إغداق الأموال عليهم بمناسبة جلوسهم على العرش، وفي حال عدم منحهم تلك العطايا قاد الإنكشارية الثورات والفتن ضدهم[67]، كما كان من الأسباب التي أدت إلى خلخلة النظام الداخلي للجيش الإنكشاري هي السماح للفلاحين والصناع والحرفيين بالانضواء

[61] نجم، أحمد عبد الله. فرقة الإنكشارية في الدولة العثمانية دراسة من خلال مفهوم الجماعات الوظيفية، مجلة حوليات آداب عين شمس، مصر، م41، 2012م، ص164-220.

[62] المحامي، محمد فريد بك. تاريخ الدولة العليّة العثمانيّة، دار النفائس، بيروت،1981م، ص252؛ شاكر، محمود. التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي، بيروت، 2000م، ص111.

[63] الغازي. دور الإنكشارية في إضعاف الدولة العثمانية، ص155؛ هويرلبير، ألبرت. إدارة الإمبراطورية العثمانية في عهد القانوني، دار نشر سورج، استانبول،1987م، ص95ص94.

[64] غب. المجتمع الإسلامي والغرب، ج1، ص254-255.

[65] المنصور، ميمونة. تاريخ الدولة العثمانية، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان،2008م، ص112.

[66] أوغلي. الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج1، ص391؛ إينالجيك. تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ص125.

[67] فواز، عبد العزيز. تاريخ الشعوب الإسلامية، دار الفكر العربي، بيروت، د.ت، ص141.

منذ عهد السلطان مراد الثالث تحت راية الجيش الذين كانوا يجهلون أمور الحرب، ولم يكونوا على قدر المسؤولية والثبات في المعارك، فضلاً عن وجود المسلمين والسماح لهم بالتحاق بصفوف الإنكشارية مما قد يحدث نوع من النزاعات والتشقق الداخلي بسبب تعالي العنصر المسلم على غيره[68].

كان من جملة الأسباب الاجتماعية التي أدت إلى تمردات الإنكشارية انقطاع مصادر دخلهم من الغنائم بسبب توقف عمليات الفتوح العثمانية في كثير من الأوقات مما دفعهم لاتباع أساليب النهب والقتل وتسببوا بحالة من الفوضى الداخلية[69]، بينما شملت الناحية الاقتصادية أسباب عدة منها تزايد أعداد الإنكشارية، وهذا ما أدى إلى عجز الخزينة عن سد نفقاتهم أيام السلم، أضف إلى ذلك فراغ خزينة الدولة في كثير من الأحيان نظراً لكثرة الحروب التي كانت تخوضها الدولة العثمانية، وكذلك زيادة مصروفات بعض السلاطين مما كان يؤدي إلى تأخير صرف رواتب الجند فيزيد ذلك من تمردهم وعصيانهم[70]، كما فترت همم الجنود وضعفت في ساحات المعركة بسبب مرتبات الخدم التي تعلو رواتبهم بثلاث أضعاف وهم الذين يتحملون مشقات وعناء الحروب فلم يكن يرضيهم ذلك الأمر، وكثيراً ماكانوا يتحينون الفرصة للتعبير عن سخطهم[71].

كان لانتشار القحط والطاعون تداعيات أدت إلى غلاء الأسعار ولاسيما في بلاد الشام، ومما ساعد على ذلك الارتفاع جشع التجار وأصحاب الأفران بالذات، وعلى إثرها تفاقمت الأزمات الاقتصادية وخلال تلك الضائقة كانوا يدخلون المدن المفتوحة، و ينهبونها دون أن يعطوا لأوامر السلطان أي قيمة تذكر[72]، وهنا بدا واضحاً ضعف الاقتصاد العثماني بشكل عام، ويعود ذلك إلى غياب الصناعات محلية مما سمح للإنكشارية بالعمل في مجال الصناعة بهدف إثراء تلك الصناعات وهذا ما أبعدهم عن ثكناتهم والالتزام العسكري[73]، وخلال فترة القرن السابع عشر برزت حالة من نبذ الخصومات و العداوات في العالم الأوروبي، وأصبحت غايتهم القصوى والهدف الأسمى هو القضاء على الدولة العثمانية التي أخذت تشكل خطراً يهددهم بعد التوغل الكبير للعثمانيين على الجبهة النمساوية، ووصولهم إلى عقر ديارها فيينا[74].

[68] رافق. العرب والعثمانيون، ص141-142؛ غربي، ص42 الغازي. دور الإنكشارية في إضعاف الدولة العثمانية، ص163-165

[69] المنصور. تاريخ الدولة العثمانية، ص68.

[70] جودت. تاريخ جودت، ص168-187؛ السيوفي، حبيب. الإنكشارية في الدولة العثمانية، مطبعة الرحبانية المخلصية، لبنان، 1940م، ص20.

[71] مصدر نفسه، ص195.

[72] هوليبير. إدارة الإمبراطورية العثمانية في عهد القانوني، ص93.

[73] أندرسون، بيري. دولة الشرق الإستبدادية، تر: بديع عمر نظمي، مؤسسة الأبحاث العربية، لبنان، 1997م، ص30-31.

[74] فيينا: يطلق عليها الأتراك "ويانة " لأن الأتراك يلفظون حرف الواو أقرب إلى الفاء من وإلى الواو وهي عاصمة إمبراطورية النمسا والمجر قائمة على نهر الدانوب، وكانت عاصمة الإمبراطورية الرومانية المقدسة إلى أن سقطت سنة(1224هـ/1809م)، وقد حاول العثمانيون فتح المدينة أربع مرات وفي كل مرة كانوا يردون على أعقابهم، لكن السلطان سليمان القانوني تمكن من محاصرتها (935هـ/1529م)، إلا أن الظروف الطبيعية من أمطار وفيضانات منعتهم من تحقيق ذلك بعد أن استمرت تلك الحملة لسبعة أشهر، كما تمكن العثمانيون من فرض الحصار على المدينة مرة أخرى سنة (1094هـ/1683م)، دخلها نابليون فاتحاً مرتين سنة (1220هـ/1805م) و سنة (1224هـ/1809م)، وفي سنة (1264هـ/1848م)، حصلت فيها ثورة عظيمة أفضت إلى إطلاق المدافع عليها مما أدى إلى تدمير جزء كبير منها، ثم أعيد بناؤها أحسن مما كانت عليه، هذا ويعدها البعض أجمل مدينة في العالم بعد باريس الملقبة بجنة الفردوس الأرضية عاصمة الإمبراطورية الرومانية المقدسة، ومملكة المجر معا تقع على نهر الطونة(الدانوب). مجموعة من المؤلفين. المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت،1986م، ص429؛ المحامي. تاريخ الدولة العليَّة العثمانيَّة، ص216.

فكان للتوسع العثماني شرقاً وغرباً آثار سلبية انعكست على ميزان القوى بين الطرفين لدرجة توقفت معها الفتوحات العثمانية خلال القرن (11هـ/ 17 م)، بعد التحالف الأوروبي الذي أنزل هزيمة ساحقة بالعثمانيين عام (1098هـ/ 1687م) في معركة موهاكس [75] ومعركة زنتا[76]على التوالي سنة(1108هـ/ 1697م) [77].

يمكن الوصول إلى الكثير من المعلومات التي تثبت وتؤكد الحالة المتردية للجيش العثماني من خلال كتّاب الإصلاح ومؤلفاتهم وفي مقدمتهم "حسن كافي الأقحصاري"(950-1023هـ/1544-1615م) [78] في رسالته "أصول الحكم في نظام العالم " والتي تعد واحدة من أهم الرسائل الإصلاحية التي وضعت في الفكر السياسي العثماني والتي قدمها للسردار الحافظ أحمد باشا، واعتبرت محاولة مبكرة نسبياً في مجال الدعوة لإصلاح الخلل الذي أصاب بنية الإدارة العثمانية وقد أكد من خلالها، ولا سيما في الفصل الثالث منها الأوضاع العسكرية السائدة خلال تلك الفترة، ووجه النقد للنظم العسكرية القائمة في الدولة العثمانية وأكد الأقحصاري على ضرورة مواكبة التقدم الأوروبي في المجالين التقني والعسكري[79].

ثالثاً: الجانب الثقافي والعلمي:

قامت المؤسسات التعليمية العثمانية وتطورت الحياة العلمية بفضل التقاليد المستقرة التي ورثها العثمانيون عن الحواضر القديمة منذ عهد السلاجقة، وقد سار التعليم لحقبة طويلة عند العثمانيين عن طريق المؤسسات الرسمية، وغير الرسمية ويمكن القول أن المدارس العثمانية الأولى كانت استمرارية طبيعية للنشاط التي توطدت أركانه في مدن الأناضول قبل العثمانيين[80].

على الرغم من انشغال السلاطين العثمانيين في بدايات دولتهم بتثبيت أركانها، عثر على الكثير من الدلائل التي تبين مدى اهتمامهم بالنواحي الفكرية، فهم لم يعتنوا فقط بالمنشآت التعليمية بل أحاطوا أيضاً طلاب العلم والعلماء بالرعاية والاهتمام، وإن عدنا للمؤسس السلطان العثماني عثمان سنجد أنه رغم انشغاله بتمهيد أمور الدولة إلا أنه كانت تربطه علاقات وطيدة بأهل العلم وكثيراً ما كان يقصد الشيخ أده بالي القرماني

---

[75] موهاكس : تقع في جنوب بلاد المجر بالقرب من الحدود اليوغسلافية.المحامي. تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص309.

[76] زنتا : بلدة في الشمال الشرقي من يوغسلافيا بالقرب من الحدود الرومانية. المحامي. تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص309.

[77] البحراوي، محمد. حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني، مجلة الاجتهاد، بيروت، ع45، 2000م، ص412-413.

[78] حسن كافي الآقحصاري(950-1023هـ/1544-1615م): هو حسن كافي بن طرخان بن داود بن يعقوب الزيبي الآقحصاري من قضاء آقحصار في البوسنة، ولد في قلعة بروساك في النصف الأول من القرن العاشر الهجري /السادس عشر الميلادي ونشأ وتلقى علومه الدينية فيها على يد قاضيها بالي بن يوسف، ورحل لاستانبول وأكمل علمه، وتولى القضاء عدة مرات كانت وفاته عام(1025هـ/ 1617م) مخلفاً العديد من الأعمال في اللغة والأدب والشعر وعلم الكلام منها روضة الجنان في أصول الاعتقادات، وشرح التلخيص وغيرها.الزركلي، خير الدين. *الأعلام*، دار العلم للملايين، بيروت، ج2، ص194؛ كحالة، عمر. معجم المؤلفين،ج1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993، ص556؛ الآقحصاري، حسن. *أصول الحكم في نظام العالم*، تح : نوفان رجا الحمود، منشورات الجامعة الأردنية، عمان،1986م، ص5-6؛ الخانجي. محمد بن محمد. الجوهر الأسنى في تراجم علماء وشعراء بوسنة، تح : عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر، الجيزة، 1992م، ص10.

[79] الأقحصاري، حسن كافي. أصول الحكم في نظام العالم، تحقيق، نوفان رجا الحمود، منشورات الجامعة الأردنية، عمان،1986م،ص56.

[80] أوزتونا. تاريخ الدول العثمانية، ج2، ص485؛ علوي، نور الدين. الحياة الأدبية والعلمية في تركيا العثمانية في عصر محيي الدين محمد القراباغي، مجلة التراث، جامعة الجلفة، ع16، 2014م، ص131.

(Sheikh Adah Bali Al-Qarmani)(602-622هـ/1206-1326م) [81]، وتعدى الأمر إلى الزواج من ابنته[82]،فبنى الجوامع والمدارس[83]، وقام السلطان بايزيد الأول(Sultan Bayezid I) (792-805هـ/1389-1402م)[84] كان حريصاً على استمرار العلماء وإكرامهم فعلى سبيل المثال أرسل في طلب الفلكاباذي(The falakabadi) [85]، وأكرمه واعتنى به وجعله خطيباً بعمارة أبيه[86].

لم يقتصر الاهتمام بالحركة العلمية على هؤلاء المؤسسين بل امتد لغيرهم من سلاطين القرن الخامس عشر ولاسيما السلطان محمد الفاتح الذي كان مشهوراً بحب العلم والعلماء، فقد طور العلوم الإسلامية بما أغدقه على ممثليها من هبات مادية سخية، فقد جعل استانبول مركزاً للحياة الإدارية والتجارية العثمانية وبذل الجهود لجذب المفكرين من الشرق[87].

بنى السلطان محمد الفاتح أيضا عمارات أخرى في استانبول والعمارة هي مجموعة المباني التي تضم المدرسة والسوق، وغير ذلك كما أنه أجرى تعديلات على نظام العلماء ورتبهم وأعفاهم من الضرائب، وضمن سهولة انتقال ضياعهم من الأب إلى البان وأخذ الاحتياطات ضد مصادرتها وبذلك أصبحت أرستقراطية العلم هي الارستقراطية الوحيدة في الدولة[88]، كما أنه كرثّ للثقافة مساندة الدولة التي قامت بتشجيع نشاطاتهم وحفزها ولما كان العثمانيون قد شغلوا مكانة مرموقة بعد سقوط القسطنطينية، فقد توافدت على العاصمة الجديدة موجة من العلماء المسلمين، وتحولت آلاف الكنائس المسيحية المهجورة والمتداعية إلى مساجد بنت فيها مدارس وفرت مراكز للعلماء

[81] الشيخ أده بالي(602-622هـ/1206-1326م) :هو الشيخ الفقيه اده بالي القرماني الحنفي، كان مولده بالبلاد القرمانية، وقرأ هناك بعض العلوم ثم ارتحل إلى البلاد الشامية وتفقه بها، ثم ارتحل إلى بلاده وكان فقيهاً صوفياً استوطن بكوينك، وبنى بخارجها زاوية، وكان الأمير عثمان يصاحبه وينزل عليه في بيته وتوفي سنة(726هـ/1326م). طاشكبري زاده، أحمد بن مصطفى بن خليل أبو الخير. الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت، ص6.

[82] حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني العثماني (ت1067هـ/1656م). سلم الوصول إلى طبقات الفحول، تح : محمود عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة إرسيكا، تركيا،2010م،ج1، ص278؛ بيومي، زكريا سليمان. قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين (التحالف الصليبي الماسوني الإستعماري وضرب الاتجاه الإسلامي)، عالم المعرفة، جدة، 1991م، ص36.

[83] العصامي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك المكي (ت1111هـ/1699م). سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، ط1، تح: عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت،1998م، ج4، ص71.

[84] السلطان بايزيد الأول (792-805هـ/1389-1402م): صاعقة الإسلام الملك السعيد والسلطان الغازي جلال الدين يلدرم بايزيد خان بن مراد بن أورخان العثماني، وهو رابع سلاطين آل عثمان وثاني من تلقب سلطان بينهم بعد والده مراد وهو من جذور تركمانية – رومية والدته كلجيجك خاتون تولى العرش بعد وفاة والده مراد في معركة قوصوه أثبت كفاءة عسكرية، وقدرات تنظيمية، وتمكن من قيادة الجيوش الإسلامية إلى النصر على البيزنطيين. وتوفي سنة (805هـ/1403م) بعد معاناة مع المرض. منجم باشي، أحمد بن لطف الله. جامع الدول (التاريخ العثماني 1299-1481م)، تح: أحمد أغير أقجة، دار السعادة، استانبول،1995م، ص50؛ البدليسي، شرف خان شمس الدين. شرفنامة في تاريخ الدولة العثمانية، تر : محمد علي العوني، دار الزمان للطباعة والنشر، دمشق، م، ج1، ص60 ؛عزتلو. تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن، ص38.

[85] الفلكاباذي : هو مؤمن بن علي بن محمد بن أجمعين بن محمد الرومي الفلكاباذي كان خطيب الروم، ومن البارعين في علم القراءات من أهل الخير والدين. ابن الجزري، شمس الدين أبو الخير بن الجزري محمد بن محمد بن يوسف (ت833هـ/1429م). غاية النهاية في طبقات القراء، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، د.ت،ج2، ص324.

[86] ابن الجزري. غاية النهاية في طبقات القراء، ج2،ص374.

[87] F.babinger,mehmed ,the conqueror ,nd his time ,rlaiph amnhim,princetion up,1978.p10.

[88] op.cit.p10.

الجدد المستنيرين الذين تدفقوا على العاصمة الجديدة[89]، وبعد فتح السلطان سليم الأول للشام ومصر، وضمه للحجاز، فقد تدفق على استانبول العلماء الأحناف من هذه البلدان، كما أرسل السلطان سليم إلى استانبول صفوة علماء الفقه الإسلامي وأصوله ومذاهبه وعلوم القرآن والتفسير والحديث والتوحيد والاحكام والإفتاء[90].

هناك من الشواهد ما يدل على أن النظام التعليمي في المدارس الإسلامية كان حتى القرن السادس عشر يفوق أي نظام تعليمي آخر في أوروبا وكان الإعداد للمناصب يتم وفق تقليد عريق أعاد السلطان محمد الفاتح تنظيمه في مرسوم خاص، ولكي يحصل رجل العلم على وظيفة حكومية مرموقة كان عليه أن يدرس في إحدى المدارس ويقوم بالتدريس فيها ويحصل على شهادة تقر صلاحيته للتعيين، وكان شغل الوظائف العليا يستلزم التدريب في سلسلة من مدارس استانبول ذاتها[91]، والجدير بالذكر أن أساس الحياة الثقافية العثمانية كان يستند إلى حد كبير على التراث الإسلامي بحيث سادت اللغة والثقافة العربية في المجالات الدينية، والقانونية في حين أحرز التراث الفارسي الزاخر الذي طوره سلاجقة بغداد مركز الصدارة في حقل الآداب والفنون، وتقدم الطب والعلوم الطبية، وكذلك الحال بالنسبة إلى التاريخ والعلوم الجغرافية التي اعتمدت إلى حد كبير على المعلومات التي جمعها الكتاب المسلمون في القرون السابقة إلى أن ظهرت المؤلفات الجغرافية الأصلية ومنها "كتاب بحرية " سنة(1521م) الذي ألفه بيري ريس والذي أورد فيه المعلومات المختلفة عن البحار والملاحة التي طورها رجال البحر والكتاب المسلمون خلال القرون السابقة مضيفاً إليها تجاربه هو، وتجارب رجال البحر الغربيين الذين وصلته معلومات عنهم[92].

أما خلال القرن السادس عشر فقد ظهر السلطان سليمان القانوني، الذي أجرى تغييرات كثيرة لم تقتصر على القانون فحسب، وإنما شملت أيضاً نظام الدولة، وقد طالت هذه التغيرات مختلف أوجه الحياة، ولاسيما المدارس وطبقة العلماء والمدرسين لأنه اعتقد أن قوة الدولة تنبثق من علمائها ومفكريها[93] فبنى العديد من المدارس[94].

مع توقف الفتح العثماني بعد وفاة السلطان سليمان القانوني انقلبت الثقافة الإسلامية على نفسها في عملية رد فعل دفاعي مع وجود الكثير من العلماء الذين ظلوا يؤمنون بتفوق العالم الإسلامي، ويحتقرون العالم الخارجي، و اعتبر التجديد موضعاً خاصاً لغضب العلماء الذين دعوا إلى رفض أي خروج على السنة ونمط السلوك الإسلامي، فكل ما لا يتماشى مع السنة كان في رأيهم يشكل بدعة وبالتالي وجب رفضه، ومنذ أوائل القرن السابع عشر الميلادي برز نوع من التقليديين الذين دعوا إلى رفض التغييرات المعاصرة[95]

]89[S. shaw,history of the othman empire and modern turkey, cammbridge,university,press,london,1967,P142.

[90] الشناوي. الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج2، ص690.

[91] غب. المجتمع الإسلامي والغرب، ص84-86.

]92 [S. shaw,history of the othman empire and modern turkey.P182.

[93] العلي، نورة عبد الرزاق. السلطان سليمان القانوني (حياته، حروبه، إدارته)، رسالة ماجستير منشورة، جامعة دمشق، سوريا، 2011م، ص62.

[94] E.Creasy. history of the ottoman turks, Beirut.1968,pp104-105.

[95]N.berkes the development of secularlsm in turkey ,montreal mc gill up,1964,P18.

وعلى الرغم من ذلك فقد وجد في الدولة العثمانية رجال على مستوى عال من الثقافة بما في ذلك بعض العلماء الذين يتجاوبون مع الأفكار الجديدة ولكنهم كانوا استثناءاً فلم يكن باستطاعتهم أن يقاوموا بسهولة الاتجاه العام الذي كانت تغذيه جماعات كبار الموظفين والإنكشارية والعلماء والذين كانت تقتضي مصالحهم الإبقاء على الأوضاع القائمة[96].

اقتصرت الدراسات الثقافية خلال تلك الفترة على الشؤون العلمية اليومية، فقد قنع العلماء بالحصول على المعرفة اللازمة لوظائفهم باعتبارهم مدرسين وقضاة ومفتين وهي المعلومات التي استقوها من عدد محدود من النصوص والكتب المعتمدة، وأضافوا إليها التعليقات، والحواشي ورغم أن القرن السادس عشر شهد بعض المؤلفات العقلية فإن العلم الوحيد الذي شهد نشاطاً بارزاً كان الجغرافيا، ولكن يبدو أن التعليم في المدارس لم يتأثر بمثل هذه المؤلفات إذ كان من السهل أن يستشار العلماء ضد المباحث غير المعهودة، والعلم الوحيد غير الديني، والذي أحيط ببعض الاهتمام من جانب العلماء الجامدين هو الطب، خاصة أن إنشاء المستشفيات، ولفترة طويلة كان يعتبر من الأعمال الخيرية الجديرة بالثناء، وإن يكن يبدو أن مواد التدريس كانت من مخلفات العصر الذهبي للحضارة الإسلامية في العصور الوسطى[97].

هذا وقد اتسمت الكتابة التاريخية في الدولة العثمانية خلال القرن السادس عشر بأنها انصبت بالدرجة الأولى على مناقب آل عثمان وفتوحاتهم، وتراجم بعض سلاطينهم، وولاتهم وعلمائهم وأن معظم المؤرخين العثمانيين، شأنهم شأن المؤرخين العرب كانوا مقلدين في التأليف التاريخي بشكل عام، ولا تكاد شخصيتهم ترى إلا بصعوبة من خلال أخبار السلاطين والفتوحات، والأمراء وأخبار العزل، والتولية والتراجم، ومن هنا تأتي صعوبة فهم الحياة الفكرية خلال تلك الفترة، ولقد جاءت معلومات هذه المؤلفات متشابهة إلى حد كبير، ويندر أن تخرج عن الإطار القصصي والعسكري ومن هنا جاءت الموضوعات الأخرى عرضية ومتقطعة [98].

واستناداً إلى ذلك اتضح تعصب العلماء خلال نهاية القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر الميلاديين من خلال استبدال بعض المؤلفات المقررة التي كانت أساساً للدراسات القانونية في المدارس بأخرى خالية من الفلسفة التي لمسوها في هذه المؤلفات، وفي النصف الأخير من القرن السادس عشر الميلادي أعدم بتهمة التفكير الحر ثلاثة من العلماء كان أحدهم مدرساً بإحدى مدارس العاصمة قال بأبدية العالم وقدرية الأحداث[99]

ومما ساعد أيضاً على هذا الجمود أن التعليم كان يتصف بوجه عام بضيق مداه، حيث لم تكن تقدم تلك المدارس سوى العلوم المعروفة بالعقلية إضافة إلى العلوم الدينية[100].

كان هناك جملة من الأسباب التي أدت إلى الجمود الثقافي خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي أهمها حظر استيراد الكتب المطبوعة والذي كان يمثل عائقاً حقيقياً في وجه أي محاولة لاستفادة العالم العثماني من التقدم المعاصر الذي كانت تشهده المعارف الأوروبية، كما ترافق ذلك مع تحريم الطباعة، واستمر ذلك حتى مطلع القرن الثامن عشر مما أدى إلى عرقلة تطور العالم العثماني، وإن يكن تأليف الكتب المختلفة في

R. davison,turkey,nee jersy.1968.P3. [96]

[97] غب. المجتمع الإسلامي والغرب،ج2، ص148-150.

[98] طربين، محمد. التاريخ والمؤرخون العرب في العصر الحديث، مطبوعات الأنشاء، دمشق، 1970م، ص13؛ لويس، برنارد. مؤرخو العرب والإسلام حتى العصر الحديث، تر: سهيل زكار، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، 2008م، ص 313.

[99] مصدر نفسه، 151.

[100] إينالجيك. تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ص177.

الرياضيات والفلك والجغرافية والطب قد استمر حتى القرن السابع عشر الميلادي[101].

ثم إنه من بعد ذلك اتسعت الهوة بين الدولة العثمانية وبين الدول الأوروبية المجاورة لها في مجالات العلوم والاقتصاد والفكر في محاولة منها لحماية أملاكها من أخطار التوسع الغربي عن طريق الانغلاق المقصود به الدفاع عن النفس، وكذلك بسبب طابع المحافظة والجمود الناتج عن خوف العثمانيين من الخطر المسيحي الأوروبي، وحرصهم على الدين الإسلامي مما دفع رجال الدين للمحافظة على استمرارية القانون والتقاليد، ومحاربة الاتجاهات المعادية للسلطة، والتقاليد الدينية، وكل أشكال التجديد، وهذه الأمور تركت السلطنة في عزلة عن مجاراة التطورات في أوروبا عكس ما كانت عليه خلال القرن الخامس عش[102].

وبنظرة على من سبق يمكن الوصول إلى خلاصة عامة هي أن الدولة العثمانية ظلت تعتمد على التعليم التقليدي كحفظ القرآن والأشياء البسيطة، ولم تعمل على إحياء العلوم وتطويرها خلال تلك الفترة ويمكن القول: إن هناك مراحل قوة ومراحل من الضعف كان لها أثرها في تطور التعليم والحياة الثقافية ككل من عدمها.

رابعاً–**الجانب الاقتصادي:**

أما اقتصادياً فقد كانت الدولة العثمانية دولة إقطاعية بطبيعة الحال وقد كان فيها نظامان الإقطاع الحربي [103] والالتزام[104] وكان السباهية[105] يستولون على نصف المحصول وعلى الضرائب المقررة على الفلاحين والتي

---

[101] غب. المجتمع الإسلامي والغرب، ج2، ص152.

[102] لوتسكي، فلادمي. تاريخ الأقطار العربية الحديثة، تر : عفيفة البستاني، دار الفارابي، بيروت، 1980م، ص21.

[103] الإقطاع : يطلق الإقطاع على ما يعطيه الإمام من الأراضي التي لم يتعين مالكها، ولم يتميز مستحقها رقبة أو منفعة لمن له حق في بيت المال، وقد كانت الدولة العثمانية تمنح رجال الدولة والجنود مقابل خدمتهم الإدارية والعسكرية إقطاعات متفاوتة في قيمتها حسب رتبة الشخص ووظيفته على وجه الانتفاع و الارتفاق فقط دون ملك الرقبة هذا وقد لجأت الدولة العثمانية إلى الإقطاع لجباية الضرائب= =والرسوم من الرعية منذ نشأتها، حيث أن جباية الأموال الأميرية من مختلف الأقاليم والولايات، ثم تحويلها إلى العاصمة أمراً متعسراً، بل متعذراً في كثير من الأحيان، وذلك لبدائية وسائل المواصلات وبطئها وخطورة نقل الأموال إلى مسافات طويلة والتكاليف العالية لحمايتها لأجل ذلك اتبعت الدولة أسلوباً لا مركزياً في الجباية والصرف هو الإقطاع حيث يقوم صاحب الإقطاع بجباية الضرائب الخاصة بإقطاعه نقداً أو عيناً ويخرج منها النفقات الإدارية والعسكرية، وكان لنظام الإقطاع ثلاث أطراف أساسية هي الدولة، وصاحب الإقطاع والفلاح.ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز (ت1198هـ/1836م). رد المختار على الدر المختار، تح: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار عالم الكتب، الرياض، 2003م، ج6، ص565؛ إينالجيك، خليل. التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، تر : عبد اللطيف الحارث، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2007م، ج1،ص553–568؛ ساحلي أوغلو، خليل. مالية الدولة العثمانية في عهد تأسيسها، إريسكا، استانبول، 2000م، ص238–290.

[104] نظام الالتزام : يعود العمل لأول مرة بهذا النظام إلى عهد السلطان محمد الفاتح، ولم يتبع بانتظام قبل عهد سليمان القانوني، وقد شهد توسعاً ملحوظاً في الاستعمال في عهد مراد الثالث ولكنه بلغ الأوج في نهاية القرن السابع عشر بتطبيق نظام المالكانة، وهو تلزيم الضرائب لفترة قصيرة بسبب استئناف موارد الفلاح الاقتصادية وشكل الملتزمون في العهد العثماني الأول واسطة بين المكلفين من الأهالي وبين الدولة، وبذلك أصبحت الدولة لا تتعامل مباشرة مع الفلاحين، بل تبيع الالتزامات للملتزمين في العاصمة وفي النصف الثاني من القرن 18م ازدادت سطوة الملتزمين وكانت الدولة لا تتدخل بين الفلاح والأرض ومنحتهم أراضي مجانية وكانت تسمى هذه الأراضي بالوسية. عوض، عبد العزيز محمد. الإدارة العثمانية في ولاية سورية(1864–1914م)، تحقيق : أحمد عزت عبد الكريم، دار المعارف، مصر، 1969م، ص182.

[105] السباهية : يقصد بهم الجنود الخيالة في الدولة العثمانية، والذين أقطعوا الأراضي مقابل خدتهم واشتراكهم في الحروب وحفظ الأمن مع عدد من الجنود يقومون بتجهيزهم مقابل الأموال التي يحصلون عليها من الإقطاعات الممنوحة لهم، وكانت السباهية على فئتين تبعاً لعائدهم المالي من الأراضي المقطعة لهم وهي الزعماء وهم أصحاب الإقطاع أما الفئة الثانية فهي التيمارية وكانوا يقيمون في المدن التابعة للألوية التي تتواجد فيها تيماراتهم . الحويري، محمود. تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، 2000م، ص252؛ الحمود، نوفان رجب. العسكر في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1981م، ص55؛ ربايعة، إبراهيم. تاريخ القدس في العصر العثماني في ضوء الوثائق العثمانية خلال القرن السابع عشر (1600–1700م)، مكتبة كل شيئ، حيفا، د.ت، ص120–122؛ إبراهيم، محمد. العسكر السباهية وأهل الريف في لواء

عرفت باسم مال مقاتلة[106] مقابل انضمامهم إلى القوات العثمانية وقت الحروب[107].

شهد الاقتصاد العثماني في نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر حالة من التدهور والانحسار ساهمت به جملة من العوامل أهمها سوء طرق المواصلات والنقل، وتعرض المسافرين للمخاطر بسبب انتشار اللصوص وقطاع الطرق في ظل الفوضى، وغياب الأمن التي كانت تعيشه الدولة العثمانية، مما كان يؤدي إلى خسائر مادية وبشرية كبيرة وانخفاض واضح في مستوى التبادل التجاري[108].

كما كان من أسباب ضعف الدولة اقتصادياً سوء أحوال التيمارات و الزعامت[109] التي كانت في الأصل مخصصة للقيادات العسكرية فتم انتزاعها منهم وتوزيعها على بعض الأغنياء ممن يملكون الحظوة وأصبح هذا التغيير سبباً في الفتن والنزاعات والفوضى بين الجنود أي كان له صلة بالفتن والنزاعات والفوضى التي قاموا بها مما اضطر الدولة لاحقاً للعمل على تعويضهم برواتب شهرية غير ثابتة يتم منحها لهم كل ثلاثة أشهر، مما أدى إلى خلل كبير في خزانة الدولة مع ازدياد عدد الجنود[110].

ومن الدلائل التي تثبت فساد نظام التيمار خلال هذه الفترة هو ما صرح به الدفتر الخاقاني"عيني علي أفندي" (1017هـ/1609م) [111]، في رسالته "قوانين آل عثمان في خلاصة مضامين دفاتر الديوان"، والتي كان قد قدمها للسلطان أحمد الأول بأمر من الصدر الأعظم "قويوجي مراد باشا" ورتبها في سبع فصول بيّن في الأخير منها الآلية التي يمكن من خلالها إصلاح الفساد الذي أصاب أراضي الإقطاع، وأعاد الخلل الذي أصاب نظام التيمار إلى أمرين: الأول شعور صاحب التيمار بأنه ذو سلطة الأمر الذي منعه من المشاركة في الحروب، والثاني يعود إلى أن دفاتر الكشوف المشتملة على أسماء الجند الذين شاركوا في الحروب والحملات، وعادة ما تكون في حوزة أصحاب التيمار مما يجعل صعوبة معرفة من يقدم خدماته مقابل التيمار الذي يتصرف فيه، كما شخّص "عيني أفندي" مكامن

القدس الشريف خلال القرن السابع عشر الميلادي، مجلة جامعة النجاح للأبحاث، فلسطين، م21، ع3، 2007م،ص839-840؛عامر، محمود. المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، ع117-118، 2012م،ص374.

[106] مال مقاتلة: يعني المال أو الإيرادات التي كان يعيش منها السباهية وكبار ضباطهم وكانت تختلف باختلاف نوعية الأراضي الإقطاعية واستمرت هذه الضريبة سارية المفعول حتى تم إلغائها على يد السلطان سليم الثالث.غب. المجتمع الإسلامي والغرب، ج1، ص21.

[107] الدسوقي، ناهد إبراهيم. بدايات الإصلاح في الدولة العثمانية وأثر الغرب الأوروبي فيها (1789-1807م)، دار المعارف، مصر، 2007م، ص46.

[108] غب. المجتمع الإسلامي والغرب، ص315.

[109] التيمار: هي الأراضي التي تقل وارداتها عن عشرين ألف أقجة.

الزعامت هي التي تقل وارداتها عن مئة ألف أقجة. صابان، سهيل. المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2000م، ص76؛ الخطيب، مصطفى. معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996م، ص181.

[110] الهواري، أحمد محمد. الإصلاحات العثمانية ابتداءاً من عهد السلطان سليم الثالث وحتى عهد السلطان عبد العزيز في ضوء المصادر التركية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة عين شمس، مصر، 1981م، ص120.

[111]عيني علي أفند: يعرف باسم مؤذن زاده تدرج في العديد من الوظائف الكتابية والدفترداراية في الدولة العثمانية من بينها أمين الدفتر السلطاني ووكيل الخزانة كما قام بجمع القوانين والنظم الخاصة بإقطاعات التيمار، والزعامات توفي سنة (1017هـ/1609م).أوغلي، خليل ساحلي. قوانين آل عثمان لعيني علي أفندي، مجلة دراسات العلوم الإنسانية، الأردن، 1987م، المجلد 4، ص90.

الضعف في نظام الزعامة و التيمار[112].

وفضلاً عن تلك العوامل فقد كان هناك أسباب أخرى أهمها الكشوف الجغرافية والرحلات التي قام بها الأوربيون لاكتشاف العالم الجديد واستغلال موارده، وقد بدأت تلك الرحلات منذ نهاية القرن الخامس عشر الميلادي وقد أسفرت تلك الحركات عن نتائج عديدة، ليس فقط على الناحية الاقتصادية، بل في الحقيقة كان لها صلة بتقدم المعارف، والعلوم في أوروبا ففتح آفاق واسعة أمام العلماء لمزيد من البحث العلمي، وترتب على ذلك تعديل كثير من النظريات التي سادت في أوروبا، بالمقابل نتج عن تلك الكشوف حملات استعمارية، وتم اكتشاف طريق جديدة للملاحة، والنقل البحري مثل طريق رأس الرجاء الصالح وأدى ذلك بالتبعية لحرمان الدولة العثمانية من عائدات جمارك[113] الولايات التابعة لها[114].

وهنا أصبح التراجع العثماني ظاهراً للعيان مع الثلث الأخير من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، وهو ما لاحظه أغلب الباحثين في الدراسات العثمانية، حيث ذكر المؤرخ الأمريكي بيتر شوجر (peter sugar)[115] في كتابه جنوب شرق أوروبا تحت الحكم العثماني، فيقول :" **رغم أن جذور تدهور الإمبراطورية العثمانية والأعراض الأولى لهذا التدهور كانت قديمة، إلا أن مظاهره كانت ملموسة خلال الثلث الأخير من القرن السادس عشر، ورغم أن بعض السلاطين الأقوياء بمساعدة الصدور العظام من أسرة كوبرلي حاولوا وقف هذا التدهور إلا أن تيار التدهور استمر دون** توقف حتى مطلع القرن التاسع عشر"[116].

وهنا يعرض المؤرخ " مصطفى سلانيكي" (Mustafa Salaniqi)(971-1001هـ/1563-1593م) في مصنفه "تاريخ سلانيكي" الفوضى العارمة التي حلت مع بداية القرن السابع عشر وما بعد فيقول :" **لم تعد الرعية تنفذ أوامر السلطان، كما أن العسكر تمردوا على سلطانهم، ولم بعد هناك احترام لممثلي السلطة، بل أنهم أصبحوا يهاجمون**

---

[112] الزهيري، خالد سلمان شدهان. رسائل الإصلاح وأثرها في إصلاح الأوضاع الداخلية في الدولة العثمانية، رسالة ماجستير منشورة، جامعة تكريت، العراق، 2009م،ص12.

[113] جمارك : من الإيطالية (commercio) واليونانية (commercium) وحرفت إلى جمرك في العربية، وكمرك في التركية، والجمرك هو الهيئة المختصة بتنظيم وفرض الضرائب على التجارة الصادرة والواردة وعرفت الجمارك بالأساكل ومفردها أسكلة اقتبست من الإيطالية سكالا بمعنى ميناء أو ثغر وهي تكتب في المصادر والمراجع العربية في أشكال شتى في صيغة المفرد إسقالة –سقالة–صقالة–أسكلة وفي صيغة الجمع إسقالات –سقالات –أساكل – أساكيل، وترد أحياناً في بعض المصادر التاريخية العربية كلمة سكلر وهي مقتبسة من اللغة الإسبانية ومعناها ميناء للعابرين أو المارين. هريدي، أحمد. دراسة عن بعض جمارك مصر في القرن الثامن عش، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1989م، 23؛ سليمان، أحمد السعيد. تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، دار المعارف، القاهرة، 1979م، ص70.

[114] سيد، أشرف صالح. أصول التاريخ الأوروبي الحديث، دار ناشري للنشر الإلكتروني، الكويت، 2009م، ص64-96؛ نوار، عبد العزيز. التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة، 1999م، ص53-82.

[115] بيتر شوجر (1919-1999م): مؤرخ أمريكي مجري الأصل حصل على شهادة البكالوريا من المدرسة الدينية اللوثرية الشهيرة ببودابست والتي خرجت بعض من أعظم علماء الرياضيات والفيزياء في العالم، هاجر إلى تركيا بسبب الحرب حيث تعلم التركية وتخصص في دراسة جنوب شرق آسيا، هاجر إلى أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية، وحصل على الدكتوراه في التاريخ ودراسات الشرق الأدنى سنة 1959م ليدرس بجامعة واشنطن في سياتل إلى تقاعده سنة 1989م.

D.istvan.peter. sugar 1919-1999. Austrian studies.newsletter university of minnesota.center for Austrian studies ,vol12,2000,p8.

[116] شوجر، بيتير، أوروبا العثمانية (1354-1804م) في أصول الصراع العرقي في الصرب والبوسنة، تر: عاصم الدسوقي، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، 1998م، ص209.

بالصفعات وليس بالكلمات فقط، كان الكل يتصرف كما يريد ومنذ أن أخذ النظام القديم والانسجام يتلاشيان ومع سقوطهما النهائي لا بد أن يحدث الانهيار بشكل مؤكد "[117]".

الاستنتاجات والتوصيات:

1-اتسمت الفترة الأولى من عمر الدولة العثمانية بوجود سلاطين أقوياء قادوا الدولة العثمانية إلى مرحلة من العظمة إلا أن تلك الحالة لم تدم، فقد ترافق موت السلطان سليمان القانوني، مع ظهور حالة من التردي والضعف في شخصية الحكام الذين جاءوا من بعده مما انعكس بصورة سلبية على الداخل العثماني.

2-لعبت قوة السلاطين الأوائل دوراً كبيراً في الضرب بيد من حديد على الفاسدين والسيطرة على مرافق الدولة المختلفة إلا أن تلك الحالة غابت خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر، فقد استشرى الفساد والرشوة وعدم الانصياع من قبل الموظفين في ربوعها، مستغلين ضعف سلاطين تلك الفترة والفوضى التي تجتاحها داخلياً.

3-على الرغم من وجود النساء في الدولة العثمانية وعلى الرغم من أن ظهورهن بصورة قوية كان مع فترة حكم السلطان سليمان القانوني، إلا أن نفوذهن تكرس بوضوح، وبلغ القمة خلال القرن السابع عشر الميلادي بصورة عامة، وأصبحن المسيطرات الفعليّات على أبنائهم السلاطين وقراراتهم الداخلية والخارجية.

4-لعبت مؤسسة الإنكشارية دوراً مهماً في توسع الدولة العثمانية منذ نشأتها واستقرارها، حيث استمرت هذه المؤسسة ما يقارب خمسمائة سنة، ولم تقتصر مهامها على الفتوحات العسكرية التوسعية، بل ساهمت في الشؤون الإدارية والمالية، كما كان لها دور كبير في شؤون القصر، إلا أنها سرعان ما تحولت من المحافظة على أمن، واستقرار الدولة إلى جهة تبث الرعب، والفوضى بين الناس حتى بات الإنكشاريون رمزاً للفساد، والانحلال منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي.

5-لم يكن الواقع السياسي الجدي للدولة العثمانية مقتصراً على ظهور قوة الحريم فحسب بل ظهر إلى جانبهم طرف ثاني هو "شيخ الإسلام" الذي تنامى نفوذه شيئاً فشيئاً حتى بلغ الذروة خلال القرن السابع عشر الميلاد، وأصبح أحد المشاركين في مضاميرها المختلفة، بل وتحول إلى أحد المشاركين في الثورات ضد السلاطين وعزلهم إلى جانب الصدر الأعظم الذي كان الشخصية الثانية بعد السلطان أيضاً، والذي آلت إليه مقاليد أمور الدولة خلال الفترة المدروسة.

6-انعكست ملامح القرن السابع عشر بصورة جلية من خلال الكتابات التي ظهرت فيه، والتي ارتبطت بمقدمات الانحطاط الذي عرفته مختلف نواحي السلطنة، فجاءت مصورة للحالة العامة للدولة العثمانية، وراصدة لمكامن الضعف والخلل الذي أصابها، وداعية إلى السبل والطرق التي يمكن من خلالها معالجة تلك الأمور، ومن أشهر المصلحين في تلك الفترة حسن كافي الاقحصاري و عيني علي أفندي على سبيل المثال لا الحصر وغيرهم كثيرون.

7-لم يكن الواقع الاقتصادي أحسن حالاً من بقية النواحي، والمرافق الأخرى للدولة العثمانية، فقد كانت تعاني من عجز واضح، أسهمت به جملة من الأمور، والتي كان من أهمها اختلال النظام الإقطاعي الناتج عن شجع المسؤولين القائمين عليه، مما أفرز حالة من التخبط المالي داخلياً.

M.selanikl,effendi,tarihi,se,aniki(1003-1008/1595-1600),hazilayan mehmed,1989,S200.] 117[

8–شكل النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي ومطلع القرن السابع عشر فاتحة لمرحلة اتسمت فيها الدولة العثمانية بالضعف، والانحطاط العام، وطريق نحو سقوطها النهائي في القرون التالية، رغم بعض المحاولات الجادة للإصلاح.

المصادر والمراجع:

[1] **ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين (ت711هـ/1312م)**. لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ت، ج3.

[2] **الأنصاري، عبد الحميد**. *الحقوق السياسية للمرأة في الإسلام*، حولية الشريعة والدراسات الإسلامية، قطر، ع 2، 1982.

[3] **أوزتونا، يلماز**. تاريخ الدول العثمانيَّة، مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا، 1988م، ج2.

[4] **أوغلي، أكمل الدين إحسان**. الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، تر: صالح سعداوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إستانبول، 1999م.

[5] **باربارو، نيقولو**. الفتح الإسلامي للقسطنطينية (يوميات الحصار العثماني 1453م)، تر: حاتم عبد الرحمن الطحاوي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر،2002م.

[6] **باشا، حسين**. الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1965م، ج1.

[7] **بركات، مصطفى**. الألقاب والوظائف العثمانية (دراسة في تطور الألقاب والوظائف منذ الفتح العثماني لمصر حتى إلغاء الخلافة العثمانية من خلال الآثار والوثائق والمخطوطات(1517–1924م)، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000م.

[8] **بك آصاف، حضرة عزتلو**. تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995م.

[9] **بن دهيش، عبد اللطيف**. قيام الدولة العثمانية، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، 1995م.

[10] **بوحوش، عمار**. التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م.

[11] **بيهم، محمد جميل**. فلسفة التاريخ العثماني(أسباب انحطاط الإمبراطورية العثمانية وزوالها)، دار صادر، بيروت، 1954م.

[12] **الجميل. سيار**. تكوين العرب الحديث، دار الشروق للنشر والتوزيع، رام الله، 1997م.

[13] **حاجي، خليفة**. فذلكة أقول الأخيار في علم التاريخ والأخبار (تاريخ ملوك آل عثمان)، تح: سيد محمد السيد، جامعة جنوب الوادي، مصر، د.ت.

[14] **الحصري، ساطع**. البلاد العربية والدولة العثمانية، ص47–48؛بعيو، غانية، التنظيمات العثمانية وآثارها على الولايات العربية الشام والعراق نموذجاً(1839–1876م)، رسالة ماجستير منشورة، جامعة الجزائر، الجزائر، 2008م.

[15] **حوراني، آلبرت**. الأسس العثمانية للشرق الأوسط الحديث، دار النشر العربية للدراسات والتوثيق، لبنان، م2، ع15، 1980م.

[16] **دسوقي، ناهد**. بدايات الإصلاح في الدولة العثمانية وأثر الغرب الأوربي فيها (1789–1807م)، منشأة المعارف، الإسكندرية، 2006م.

[17] **الدغيم، محمود السيد**. تاريخ البحرية العثمانية حتى نهاية عهد الخليفة العثماني سليم الثاني بن سليمان القانوني بن سليم الأول 1574م، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، 1994م.

[18] **الرامفوري، ناصر الإسلام المولوي محمد عمر(855هـ/1451م)**. البداية في شرح الهداية، دار الفكر، سوريا، 1980م، ج1.

[19] **السيد، محمد السيد**. انهيار الدولة العثمانية، مكتبة الآداب، القاهرة، د.ت.

[20] **شمس الدين نجم**. زين العابدين، تاريخ الدولة العثمانية، دار الميسرة، عمان، 2010م.

[21] **الشناوي، عبد العزيز**. الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 2004م، ج1.

[22] **شهاب، رنا عبد العزيز**. حركة الإصلاح العثماني قبل عهد التنظيمات، مجلة الدراسات التاريخية والثقافية، م11،ع39، 2007م.

المراجع الأجنبية:

[23] L. G. Michaud, BiographieUniverselleAncienne et Moderneou Histoire ordrealphabétique de la vie privée et publique de tous les hommes qui se sontdistingués par leursécrits et leurs actions, vol. 11, L. G. Michaud Imprimeur Paris, 1814.

[24] Deshayes de Cournemin, Voyages du Levant fait par le commandant du roi en l'année 1621, par le sieurd.C., Paris, 1624.

[25] C. Ulucay, Harem II, Turk TarihKueumuBasimevi, 3rd ed., Ankara, 1992.

[26] M. olustur.*ancakyuzyllar boyunca fark*.I ve farkli bir islami siysi proje.istanbul.1988

[27]G. Coskun.*osmanli deniz tarihinin perveze-inebagti doneminde kaptani Deryalik*.deniz kuvvetleri dergisi.ankara.1995

[28]C.gazioglu.ahmet.kibris turk tarihi.turk donemi 1570-1878.letkosa.kibris arstima ve tayin merkezi.1994.

References:

[1] M. Ibn Manzur. *Lisan al-Arab*. vol. 3. Dar Sader. Beirut, n.d. (in Arabic)

[2] A. H. Al-Ansari. *The Political Rights of Women in Islam*. Yearbook of Sharia and Islamic Studies. Qatar, no. 2. 1982. (in Arabic)

[3] Y. Oztuna,* History of the Ottoman States*. Faisal Foundation for Finance. Turkey. vol. 2. 1988. (in Arabic)

[4] O.ekmeleddinihsan. *the ottoman state: history and civilization*.trans. saleh saadawi. research center for islamic history. arts and culture. Istanbul. vol. 5.1999. (in Arabic)

[5] B.nicolaus,* the Islamic Conquest of Constantinople (Diaries of the Ottoman siege 1453 CE)*. transl. hatem abdel rahman, ain. center for human and social studies and research. Egypt. 2002. (in Arabic)

[6] B. hussein. *islamic arts and functions on arab antiquities*. dar al-nahda al-arabiya, cairo. 1965. (in Arabic)

[7] M.Barakat. *Ottoman Titles and Positions (A Study of the Development of Titles and Positions from the Ottoman Conquest of Egypt until the Abolition of the Ottoman Caliphate through Antiquities. Documents, and Manuscripts (1517-1924))*. Dar Gharib for Printing. Publishing. and Distribution, Cairo. 2000. (in Arabic)

[8] A. His Excellency Izzatlub. *History of the Ottoman Sultans from Their Beginning to the Present*. Madbouli Library. Cairo. 1995. (in Arabic)

[9] A. l.dahish. the rise of the ottoman state. modern renaissance library. mecca, 1995. (in Arabic)
[10] A. bouhouch. *The Political History of Algeria from the Beginning until 1962*. Dar al-Gharb al-Islami, Beiru, 1997. (in Arabic)
[11] M. Jamil Beiham. *The Philosophy of Ottoman History (Causes of the Decline and Fall of the Ottoman Empire)*. Dar Sader. Beirut. 1954. (in Arabic)
[12]S.Al-Husri. *The Arab countries and the ottoman state bayou ghaniya. the ottoman reforms and their effects on the arab Provinces: the levant and Iraq as a model (1839-1876 CE)*. master's thesis. university of algiers. algeria.2008. (in Arabic)
[13] Albert Hourani. *The Ottoman Foundations of the Modern Middle East*. Arab Publishing House for Studies and Documentation, Lebanon. vol. 2, no. 15, 1980. (in Arabic)
[14] N.Desouki. *The Beginnings of Reform in the Ottoman State and the Influence of Western Europe on It (1789-1807 CE)*. Dar al-Ma'arif, Alexandria. 2006. (in Arabic)
[15] D.Mahmoud al-Sayyid.* The History of the Ottoman Navy until the End of the Reign of the Ottoman Caliph Selim II. son of Suleiman the Magnificent. son of Selim I. 1574 CE*.Publications of the Union of Arab Historians. Cairo. 1994,(in Arabic)
[16] Nasir al-Islam Mawlawi Muhammad Umar (855 AH/1451 CE). *Al-Bidaya fi Sharh al-Hidaya*. Dar al-Fikr. Syria. 1980. (in Arabic).
[17] I. Sarhank. History of the Ottoman State. Dar al-Fikr al-Hadith, Beirut. 1988, (in Arabic)
[18] M.al-Sayyid al-Sayyid.* The Collapse of the Ottoman State*. Maktabat al-Adab, Cairo. n.d. (in Arabic)
[19] Z. al-Abidin Shams al-Din Najm.* History of the Ottoman State*. Dar al-Maysara. Amman. 2010. (in Arabic)
[20] A.A. Al-Shinawi. *The Ottoman State: A Slandered Islamic Stat*. Anglo-Egyptian Library. Cairo. 2004. (in Arabic)
[21] R. Abdul Aziz Shihab. *The Ottoman Reform Movement Before the Tanzimat Era*. Journal of Historical and Cultural Studies, vol. 11, no. 39.2007. (in Arabic),
[22] M.Taqoush.*the ottomans: From the Establishment of the State to the Overthrow of the Caliphate (1299-1924)*. Dar Beirut. Lebanon.1995. (in Arabic),
[23] L. g. Michaud. *BiographieUniverselle Ancienne et Moderneou Histoire par ordrealphabétique de la vie privée et publique de tous les hommes qui se sontdistingués par leursécrits et leurs actions*. vol. 11. l. g. Michaud Imprimeur. Paris. 1814.
[24] Deshayes de Cournemin, Voyages du Levant fait par le commandant du roi en l'année 1621, par le sieurd.C., Paris, 1624.
[25] C. Ulucay, Harem II, Turk TarihKueumuBasimevi, 3rd ed., Ankara, 1992.
[26]M. olustur.*ancakyuzyllar boyunca fark*.I ve farkli bir islami siysi proje
[27]G. Coskun.* osmanli deniz tarihinin perveze-inebagti doneminde kaptani Deryalik*. deniz kuvvetleri dergisi.ankara.1995
[28]C. gazioglu. *ahmet. kibris turk tarihi. turk donemi 1570-1878.letkosa*.kibris arstima ve tayin merkezi.1994.